396
Sa15cA
V.1

DATE DUE

JAFET LIB.
- 7 FEB 1991

AS
396
Sa15iA
V.1
c.1

إلى الكاتب الكبير ورائد الفكر في لبنان
الأستاذ البر أديب
منشئ «الأديب» في بيروت
تحية وتقديراً وشكراً
المؤلفة
١٩٥٠/٥/٥

وداد سكاكيني

إنصاف المرأة

القسم الاول

Cat. Prog 52

78797

مطبعة الثبات بدمشق
١٣٦٩ — ١٩٥٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل

إذا كان لابد لكل كتاب من مقدمة ، فاني أؤثر المقدمات القصار ، لأنها تفضي بالقاريء الى الكتاب دون تعرج او انعطاف ، وأحسن البيوت ماكانت ابوابها على الدرب ، تصل إليها من غير وصيد بعيد او دهليز طويل

وهأنذي أقدم كتابي « انصاف المرأة » لجمهرة القراء والقارئات وقد صنعته من أجل الشرقيات عامة ، والسوريات خاصة ، فأودعته سيرة جهاد وحياة تأمل وتعلم وانتظار ، وماضياً للمرأة فيه ألم وعزاء وحاضراً فيه رجاء وعناء ، وما كان موضوع الكتاب لينطوي تحت طبيعة واحدة يبدأ منها وينتهي اليها ، فان خير الكتب ماكان ذا وحدة في فنه وغايته ، من فاتحته الى خاتمته ، غير ان الشافع لكتابي هذا هو انه ينبثق من الموضوع الواحد الذي يمس المرأة في حياتها وحاجتها مساً قريباً ، ويتحدث عن نفسها وجنسها ، في البيت والمجتمع ، في الثقافة والشمائل ، في الانطواء والتحرر ، ولقد جمعت صفحاته من أحاديث ومقالات ، نشر بعضها في الصحف والمجلات ،

او تحدثت في بعضها الآخر بالمعاهد والاذاعات، فهي من صميم عالمنا ودنيانا، فيها همومنا وقضيتنا، وفيها انوثتنا وقصتنا، وإنه لحتم لزام علينا ان نصور مايضج في حياتنا من وعي واعتداد وطموح وان نعبر في سطورنا وآثارنا عن شوقنا الى مستقبل أفضل وناس أعدل، ولا بدع ان كانت حجتنا دامغة وصرختنا بالغة، فان الحق أبلج، وهو أحق بأن يتبع، ففي سبيله تجتاز المرأة العربية انقلاباً اجتماعياً عنيفاً واكبت مواكبه على علم وكرامة ولباقة، حتى تبلغ الغاية المثلى وتؤدي رسالتها في حدود الله وشرف الوطن وطاقة المواهب والطبيعة

لقد ألفت من هذا الموضوع كتاباً للنساء يجدن في تضاعيفه وفحواه تصويراً لما يعنيهن في حياتهن الراهنة، ولفتيات الجيل الصاعد لكي يشفقن فيه من تاريخ الأمهات، وللرجال المخلصين لينظروا في صفحاته الحقيقة النسائية التي زورها أعداء المرأة، والباطل الذي يهرجه المتحكمون في نهضتها، المختصمون في قضيتها، وكم نفع الصُراح فرد الى الخير والصواب

وما كانت المرأة في كل عصر ومصر الا ريحانة الوجود، ووسيلة الخلود، فلنروّ مغارسها بماء من صفاء القلب والروح، ولنتعهد نماءها بعناية وتمحيص وإخلاص، وعندئذ نكون قد أنصفنا المرأة وصنعنا من أجلها الجميل الذي لايفنى

دمشق - وداد سكاكيني

4 Dec
٧٨٢١.

إنصاف المرأة

كشفنا كتاب «كشف الظنون» وهو السفر الجامع لمسميات الكتب القديمة وأوصافها مخطوطة ومطبوعة ، لواننا نقبنا في هذا الكتاب عن التصانيف والمؤلفات التي سميت بالانصاف، لوجدنا بينها الكثير في شتى الموضوعات ، فمنها النَصَفة بين الفقهاء والمحدثين او بين اللغويين والنحويين ، ومنها الانصاف فيما بين العلماء من خلاف ، والانصاف في تمييز الأوقاف ، غير أننا لانجد كتاباً واحداً اختص بانصاف المرأة، او انتصف مؤلفه من ظالميها ووقفه على قضيتها

كذلك كان حظ المرأة من المؤلفين والمصنفين ، حتى انبسطت الحضارة العربية ، وازدهرت الحياة العقلية والاجتماعية فأخذ شيوخ الأدب يجمعون ماقيل في النساء من طرف ونوادر، سواء في المديح او التقبيح كما صنع الجاحظ ، ولما اتسع نطاق التأليف عند العرب وضع بعض المحدثين والباحثين تراجم ملمومة في غير توحد ولا نسق، لمئات من الفقيهات والمحدثات ، والشاعرات والمفكرات، فيها عنعنة واستطراد ، وليس فيها النهج العلمي او الميزان المعهود

لاجرم ان القضية النسوية متوغلة في الدهر متشابكة شائكة ، أعضلت آدم ، واختلفت الآراء والأهواء فيمن كان سبب المعضلة الكبرى، فتحيز ناس الى آدم عنفوا حواء واتهموها بالاغراء والاغواء وقد فاتهم ان القرآن ذكر آدم وحده بالغواية والعصيان ، ولم يفرد حواء بوسوسة الشيطان

من ذلك الحين ضاقت المرأة باتهام الرجل وأوهامه ، فراحت

تنظلم وتبحث عن منصف لقضيتها ، وقد عاشت خلال العصور وفي كل الأمم والشعوب تسعى الى غايتها لاتريم عنها ، وكانت تطل فترة بعد فترة ، من كوى بيتها او من منافذ خدرها متبسمة متأملة ، مشرفة على عالم لابد ان يأتي ، ولم يكن يعوقها عن ان تحلم طويلا في إقبال هذا العالم ، فهي في منزلها بين أمومتها ومطبخها ، وبين ثقافتها وزينتها كانت ولا تزال تواقة الى عالمها المنشود ، ترتقب اليوم الذي يسوده الانصاف ، وتعم الناس جميعاً حقوق الحياة وكرامة الانسان

وطال حديث الرجل عن المرأة دون ان يتغير رأيه فيها ، وما أكثر الألفاظ التي كررها ورددها على ترادف الأيام حول القضية النسائية ، حتى غدا الكلام على المرأة موضوع من لاموضوع لديه ، فمن التشهير بالخطيئة المزعومة ، الى ترديد التهمة التقليدية والوصمة الأبدية بالوعظ المكرور المعاد عن اغراء حواء ، والحقيقة العليا عن كل هذا بمعزل ، فكان دأب الرجل الذي يعلم والذي لايعلم ان يستهين بها ويقضي بشؤونها وفق أثرته وهواه ، مستعيناً بقوة جسمه وتراث رأيه وحكمه .

وقد مرت المرأة بعصور كانت تبدو فيها او تحتجب ، حسبما كانت تقتضي الأوضاع القومية والنظم الاجتماعية فتقاذفتها أمواج التغير والتطور التي كانت بين مد وجزر في خلال تلك العصور حتى استهدفت حياة المرأة وخطواتها لأحداث وصدمات ، جعلتها تتخلف حيناً وتقف أحيانا ، فاذا تزحزحت الاثقال والاغلال ، ولاحت لها بشائر

الحرية والخلاص ، اخذت ترفع صوتها وحبتها ، لتشعر الرجل بأنها إنسان ، لاتمثال او متاع...

وأتيح للرجـــل في خطرات الادب الغابر والمعاصر ان يصور حياة المرأة ويعبر عن مشاعرها وخواطرها كما تخيل تلك الحياة وتمثل تلك المشاعر والخواطر ، لا كما كانت او كما هي ، إذ لم يعرف المرأة على حقيقتها فقد عرفها غير أمه وزوجته ، وغير بنته وأخته ، وتناول قضيتها وفيها دعواها وشكواها ، وكان في كل شأن لها هو الخصم وهو الحكم ...

اما الرجـــال الذين صوروا عالم النساء وعبروا عن مظاهره وخفاياه ، وخاضوا في شؤونه وشجونه وهما وزعما ، فكان معظمهم من المفكرين والشعراء في الشرق والغرب ، غلب عليهم الطبع الموروث والرأي الذي لم يتغير على الرغم من تغير الحضارة وتطور الثقافة وتبدل الآفاق ، فضيقوا الابواب على المرأة بأشتات المطامع والأحابيل ، لكي تبقى حبيسة الدار ، وطاهية المطبخ ومربية الطفل ، او لتكون زهرة ندية عطرة يتمتعون منها بشم وضم ونظر ، فكانت كتبهم وآثارهم تدور حول هذه الآراء والاهواء ، ولم تخرج المرأة في شعرهم وادبهم ، وفي فلسفتهم ومنازعهم من نطاق مخلوقة وجدت على الارض لتتم سعادتهم وتقوم بخدمتهم ...

وجاء عصر المرأة ، او هذا العصر الذي طغت فيه حدود وفكت قيود ، وثارت ثورات سياسية واجتماعية ، طالب فيها الناس بحقوق لهم مغصوبة او منهوبة ، تخطفها الاقوياء ، واحتكرها الطغاة والطمعاء

وشاعت المعرفة بين النساء في الشرق والغرب ، فتطلعت كل واعية او رافية الى الشعوب التي جهرت بميثاقها ودستورها في ايمانها بالحقوق الانسانية للجنسين على السواء ، وقارنت المرأة العربية بين غابرها وحاضرها ، وبين تخلفها وتقدمها لتتبين بين نساء العالم مكانتها وتعد لنهضتها الراهنة عدتها ، فجعلت تستوحي فطرتها وكرامتها ، وتمحص ماادركت من معرفة وثقافة وما عندها من همة وطموح وقد واتاها من اسباب الوعي والتحرر والتقدم مايعينها على التماس بغيتها التي ينبغي ان تحققها في قريب او بعيد ، فهي لاتسعى الى اغتصاب حق اختص به الرجل او اكتساب امر ينأى بها عما خلقت له ، ولا تريد ان تزاحم بالمناكب في غمرة السياسة ، وأثرة الاحزاب ، وما لاينبغي للمراة ان تطحم فيه الجموع من اجله ، فتفقد حرمتها وعصمتها وانما تسعى جاهدة دائبة ، مترفقة متمهلة حيناً ، ملحة متعجلة احيانا للوصول الى حقوقها المعقولة المغيبة التي منحتها اياها الانسانية ، ولم تحرّمها عليها الطبيعة ولا الشريعة .

وعاد الادب في نهضة المرأة التي جدّت ووجدت ، يتظرف على حساب النساء فيستهزيء بحركتهن الجديدة ، ويزدري اهدافها ويجملهن غرامة الشهرة المصطنعة ، وكم ادت المرأة العربية في خلال العصور امثال هذه الغرامة وذلك الحساب ، واذا بنابغة مصر توفيق الحكيم يمضي على بعد الزمان في ركب «اريستوفان» فيستغل «اهكومته» القديمة ويعيدها سيرتها الاولى الى دنيا العرب بعد ان

يضفي عليها حلة طريفة من عنده ، ويسميها « براكسا » او مشكلة الحكم ، عارضاً نساء العصر في صور المتطاولات على الرجال ، ومنتهياً من تمثيليته الى جعل المرأة كدأبه ، موضع السخرية والزراية ، ولا يدع عدو المرأة سانحة من السوانح دون ان يندد في صدد النهضة النسوية بتورط الشرق في ايمانه الاعمى بالمذاهب الغربية ، حتى راح يطمس روح المرأة مدفوعاً بما يسمونه « مركب النقص » الى آخر هذه التهاويل التي سئم الناس ترديدها

وراح كاتب الشرق الاستاذ العقاد ينشر في ذلك الحين كتابه « هذه الشجرة » مشفقاً من توريط المرأة فيما لم تخلق له ولم تخلق لها ، فهي لاتصلح عنده لشيء ، وليس فيها من المزايا والسجايا ماترقى به الى سوية الرجل ، فيجد مطاليب المرأة الحديثة سابقة لأوانها ، فهي نزوة من نزوات العصر ، وطراز حديث في طراز الفكر السائي يشبه ماتتعلق به المرأة من تجديد الازياء

وغير هذين الصريحين كثير من ادبائنا المعاصرين يتغمغمون ويجمجمون في القضية النسوية فلا ينصبون صدورهم في مناواة المرأة تنابزاً لنصالها في نضالها ، وانما يترسون وراء آراء قالها غيرهم في النساء ، فهم يروونها على الرواية من غير ان يدلوا بأي رأي فيهن ، وناقل الكفر في زعمهم ليس بكافر ...

كذلك رأت المرأة ان الادب لايخلص لها ولا ينصفها ، لان موضوعه الفن والجمال وهي موضوعه ايضاً ، ولا نصرة لها كما تشاء

عنده ، لأن مالك العبد يؤثر ان لايعتقه ولا يطلقه ، فارتدت الى المجتمع الذي اخذ يتحرر ويخلص من قيوده تنشد فيه النصير المنصف فوجدت ان رجال التشريع والاصلاح لايتحرجون من انصافها على ضوء الشرع والعقل والمصلحة العامة في حدود الحاجة القومية والضرورة الاجتماعية ، وكانت المرأة العربية تؤمن بربح قضيتها في محكمة العصر ، فقيض الله لها من قضاة المجتمع وقادته انصاراً عادلين ايدوها على اخلاص وبصيرة، وكان في طليعتهم سفير العروبة والكنانة محمد علي علوبة باشا والرائد العظيم علي زكي العرابي باشا وقائد الاصلاح القومي والاجتماعي بمصر النابغة محمد حسن العشماوي باشا وسواهم من المشرّعين المصلحين الذين يرون ان العلم وحده هو الذي ينصف المرأة ويعدها لتسلم رسالتها الموعودة، وقد بادر بعضهم فناشد الحكومة بأن يكون لها يد في هذا الاصلاح والتطور، وقدم الحجة والبرهان على ان للمرأة المتعلمة والمثقفة حق البحث والنظر في امور تمسها وتهمها ، كتعدد الزوجات وحضانة الأطفال والطلاق ، واختيار الزوج والتعليم النسائي ، ونحو ذلك ، ورأى احدهم بأن تأخذ المرأة حق الانتخاب اذا كانت متعلمة ، فكيف تحرم هذا الحق الصحافية والاديبة ، والحقوقية والطبيبة ، والنابغة الموهوبة ، والاستاذة في التربية والتعليم ، وامثالهن من ذوات الفكر والرأي ويقرر لكل أمي وعامي ممن لايدري شيئاً من شؤون الامة وقد يمثل الشعب كله رجالاً ونساء ، والنساء نصف الامة ، افلا

يحق للمثقفة اختيار من تراه اهلاً لهـذا التمثيل ، ان لم يتح لها مهما كانت ممتـازة متفوقة ان تنوب عن شعبها وبلادها كنيابة الرجال

وكانت الجمعيات النسوية والهيئات الاجتماعية التي تساير التطور وتستجيب لحاجة الزمن تؤمن بهذه الآراء الاصلاحية التي تمس حياة المراة المعاصرة فكانت تدعو اليها وتسعى في كل سانحة وبادرة الى تحقيق مطاليبها المشروعة ، حتى نضجت هذه الآراء فأتيح للمرأة السورية المتعلمة في هـذا العهد التقدمي الجديد ان تسبق غيرها من نساء العرب الى حق الانتخاب ، وقد اظهرت حين مارسته كفـاية وحصافة وبعداً عن التحيز والاستغلال الذي يقع بين الرجال

ولا يحسبن الرجل ان اخذ المرأة حق الانتخاب هو كل ماتنشده من الانصاف ، فان هنالك حقوقاً الصق بالنساء واجدى على البيت والمجتمع من الحقوق السياسية كحق الحياة الكريمة والقسمة العادلة وتنسم الحرية المقدسة وغيرها من الامور التي طمس الرجـل حق المرأة فيها ، غير ان المجتمع الذي دب فيه الوعي ، والزمن الذي يشبه السيل فيجتاح الحدود والسدود ، هما الكافلان انصاف المرأة ...

فلقد هتف قاسم امين من ضفاف النيل قبل نصف قرن ، طالباً تحرير المرأة وسفورها ، فضحك منه من ضحـك وعجب لامره من عجب ، ولكن الزمن حقق بغيته ورأيه واستجاب لندائه ، فاذا المرأة العربية في هذا الشرق تخرج من طور العزلة والانقباض ، الى طور التحرر والنشاط

وكيف اتفق الامر ، في غلو المكابرين وانصاف المخلصين ، فان اشعة الامل بزغت في هـذا العصر من افق المرأة ، فعمت انوارها الاولى جانب الدنيا ومن هـذه الاشعة الساطعة مطالع الزُهر من نسوة معاصرات ، تقسمتهن اقطار العرب كما تقسمت الروضات ازاهيرها الفواحة ، فطلعت نسوة ممتازات فكراً وثقافة ، وعبقرية وشخصية ، وجهاداً واخلاصاً ، هن الرعيل الفاتح للنهضة النسوية المعاصرة ففي مصر غير الفقيدات الخالدات ، كثيرات عديدات ، تتعطر الشفاه عند ذكرهن كالسيدات إنصاف سري واسماء فهمي وسهير فلماوي وعائشة اقبال راشد وسيزا نبراوي وفي سورية ولبنان وفلسطين والعراق طليعة من اصيلات الرأي والفضل والنبوغ كالسيدات عنبرة سلام الخالدي وسلمى صايغ وابتهاج قدورة ، وماري بني عطا الله ونازك عابد ، وامة السعيد ، وسواهن من طلائع النهضة وبشائرها في كل بلد عربي يتطلع الى حياة حرة عادلة

وما اتيت بهذه الاسماء الا مكاثرة ومفاخرة ، وليس لاحد ان يقول هؤلاء قلة ، وسواد النساء ليس كمثلهن ، فأجيب ومتى كان سواد الرجال افضل ، فان الافذاذ قليل في الجنسين ، ولعل الرجال سيثوبون الى العدل والتبصر ، فلا يتحرجوا من انصاف المرأة والاعتراف بحقها ، حين يجدون هذه الطليعة التي تزيدها الايام عدداً و مدداً ، فيسلمون في العناد وينقلبون من اعداء الى اصدقاء ، وسيكونون معنا في الرأى ، بانه ليس منا بعض نسوة هن حرب

علينا وعلى الرجـال معاً في مايصطنعن من عـداوة لجنسهن حين ينحرفن عن الحقيقة ويخالفن عن مقتضيات العصر ، فيلححن بان تقتصر المرأة على خـدمة البيت وهن ابعد النساء عن البيوت ، واولئك المتطرفات المترفات فانهن الد الخصـام للجنسين اذ كن بالتبـذل والاستهتار والشذوذ من اسباب عداوة الرجال للنساء

على ان الصحيح في الدعوة التي تمكث في الارض ويذهب كل شيء جفاء دونها هي ان تمضي المرأة الى طيتها وعلى سجيتها متزودة بالعلم والاخلاق ، وقد عرفت نفسها وقدرت التبعات ، حتى تستطيع وحدها ان تحـل قضيتها بيدها ، حسب حاجتها وطاقتها ، وحينئذ تكون مثـل جيش فاتح ، تتداعى امامه الحصون ، وتعنو له الحصوم ، فتتحقق لها الامال ويطلع عليها صباحها الكبير

السوريات

في النضال الوطني

اطلق كلمة المرأة السورية لا اقصد بها طائفة من نساء حين هذا الوطن دون طائفة ، ولا جماعة دون جماعة ، وانما اجعل الكلمة شاملة نساء هذه البلاد التي شارك كبيرها وصغيرها ، غنيها وفقيرها ، في بناء مجدها الحديث

فاذا تتبعنا اطوار النضال الوطني الذي تمرست به المرأة السورية ووقفت حياتها عليه اسوة بالرجل ، وجدنا ان السورية الواعية كانت تتململ من سياسة الضغط والاستبداد ايام الحكم التركي الذي كان باسط الجناح على هذه الديار والامصار ، ثم نما فيها هذا الاحساس وغرسته في نفوس بنيها وبناتها في عهد الانتداب الفرنسي الذي كان ينتهي سلطانه عند عتبة الابواب ، فاذا اغلقت المرأة السورية بابها عليها ، بعد عودة من مظاهرة او مناوأة ، بقيت تتعهد نفسها وذويها وتثير فيهم النخوة والحمية حتى يتاح لها يوم آخر

ولست اليوم مؤرخة فأستقصي حوادث الماضي ، واساليب السياسة التي نفخت في الجيل المتحرر الصاعد روحاً عنيفة تجلت في تمرده وجهاده ، وقد واكبته المرأة الوطنية وآثرته في كل محنة ومؤازرة ، اذ كانت تشعر بشعور اهليها ومواطنيها الذين كانوا الضحايا الاوائل للحرية المنشودة ـ وانما افتح الآن عن صفحة مطوية خالدة كتمها الزمان منذ جلا الترك عن هذه الارض ، ليحفظ لنسوة سورية

سطوراً غراً محجلة في تاريخ الوعي القومي والنضال الوطني فاذا بعثنا هذا الماضي الذي ضج بالاحداث والخطوب ، طلعت علينا دمشق بثورتها لحقها وكرامتها ، وأنفتها من عتو الحاكم الغاشم ، وقد غضبت لغضبتها حلب الشهباء ، عرين « هنانو » و « الجابري سعد الله » فحنا الشمال على الجنوب ، وماجت المدائن والقرى بالأباة الساخطين ، فبرز الشيخ المسن ، والمرأة المخدرة ، والفتيان والاطفال هاتفين للخلاص والاستقلال

على ان اروع المظاهر الوطنية مابرزت فيها المرأة السورية ، متعلمة وامية ، تتقدم الحشد المرصوص خطيبة تثير الحماسة والكبرياء ، او طالبة غضبى يخفق في قلبها حب الوطن ويعرب نداؤها وسماؤها عن هذا الحب ، ففي جميع الحركات القومية كانت السوريات نسوة وفتيات ، يقفن وقفة اللبوءات الابيّات في وجوه المستبدين ، فما لاحت لهن سانحة الا بادرن فيها الى ارسال الاحتجاج تلو الاحتجاج الى الهيئات الدولية والحكومات المحلية معربات عن شعور الامة في نقمتها وثورتها على سياسة غاصبة غشمة

في تلك الايام الشداد ، وعلى الرغم من كل تعنت وإحراج لم تنهب السورية سجناً او سلاحاً ، ولم تخش رصاصاً ، فقد تلقته بيدها او بصدرها دفاعاً عن ولدها واهلها ولم تنهزم في صدمة ملمة ، او هجمة فاحمة بل ضربت الامثال للرجال على البسالة والفداء

ولم يكن اشجع من اولئك النسوة المتحجبات اللاتي كن ينطلقن

من الاحياء القديمة في دمشق ، وقد انقطع الدرب فما يجسر جندي المحتل ان يمر به او يتسلل اليه خشية الحجارة التي كان يرشق بها صداً لعدوانه وطغيانه ، اما اولئك الشجيعات فكن ينتزعن من الارض الحصى ، ثم يحملنه في اطراف الملاءات الى ذويهن من الثائرين ، حتى تدمى تلك الايدي الناعمة وهن لايبالين خشونة ولا حرجا .

ولقد بقيت هذه الروح النسوية الحماسية قوية مفدّية ، تكمن في الاحياء الحديثة حيناً وتظهر في الاحياء القديمة احيانا ، منسرحة من اعماق الميدان الى جنبات الشاغور ومن سفوح الصالحية الى عطفات السمانة والقيمرية ، وما من هبة مواتية او وثبة سانحة للرجال في هذا النضـــال الا كانت المرأة فيها الروح التي لاتنام على ضيم ولا تستخذي لضعف او اضطهاد ، تستوي في ذلك المتعلمة وغير المتعلمة لان الشعور الوطني لايعوزه الا قلب خفاق بحب الوطن ، مؤمن بحقه وحريته ، والنضال من اجله وفي سبيله حتى الفداء ، غير ان فئة من المترفات كان نصيبهن في الجهاد اقل من نصيب الفئتين الوسطى والدنيا مناوئة ومراسا ، وما عرف تاريخ الكفاح الوطني امرأة مترفة قد انحدرت من برجها الى الشارع والحومات فدميت يدها او طعنت في نحرها ، ولا تثريب عليها فان نهضات الامم في الشرق والغرب وثوراتها الدامية كانت الاعباء فيها ملقـاة على كواهل الطبقتين الوسطى والدنيا دون العليا ، ولست بمتجنية على فئة من هذه الطبقة التي نعمت وغنمت حين كان غيرها يشقى في البلاء والفداء

فان فيها من النسوة الفضليات من انصرفن في الشدائد والمحن ، الى اعمال الاحسان والاسعاف

وثمة ظاهرة نسوية في هذا النضال لم تبد في بلد عربي غير سورية فقد عرفنا نساء الاقطار الشقيقة والمجاورة ساعيات الى نهضتهن والى مشاركة الرجال في الجهاد الوطني بتوجيه زعيمة او زعيمات ، كن يشين في الطليعة ويجمعن الكلمة ، او يحفزن الهمة والعزيمة ، الا في سورية فان نساءها كبريات وصغريات ، متعلمات واميات ، كن يستجبن لنداء الوطن دون ارادة خاصة او قيادة عامة ، مندفعات الى نضال الاحتلال من عند انفسهن وقد امتلأت قلوبهن بمعاني التحرر والاستقلال، والذود عن حرمة الحمى ، فكان الشعور الوطني هو الداعي الى الجهاد النسوي اسوة بالرجال ، لايبتغين من ذلك حاجة ولا صيتا ، ولا يرتجين جزاء ولا شكورا ، وكانت منهن من مضت الى النضال متلثمة متكتمة ، كما تكتمت من قبل خولة بنت الازور وان في تاريخ الثورة السورية صفحات غراً لم تنشر بعد، قد تلألأت في سطورها بطولة السوريات المناضلات اللاتي كانت الغوطة الخضراء تحنو عليهن وتحميهن من غدر الاعداء ، فكم من ام ثكلى واخت معذبة وزوج والهة كانت تغذي الوطن بالاعزاء من الابطال والشهداء

فيالايام الاضراب الجبار ! يوم كان المتظاهرون الثائرون يتألبون على المتارس والحصون، يرشقون العدو بالحجارة، ويتلقون الرصاص متأبين غير هيابين ، وكانت النساء تزودهم بما هو اشد من السلاح في بذل المال والارواح

وليت حسن الخراط يروي من اطباق ثراه نبأ اولئك النسوة

المناضلات اللاتي رافقن البطل في تمرده وجهاده، فرفدنه في اكناف الغوطة يوم شد شدته الصاعقة على هجمات الاعداء ، حتى اذا وقع البطل شهيدا بكته القلوب بالحسرات ، وثارت الثائرات لمصرعه ، ومن يدري فرب واحدة منهن قد صارت اليوم شيخه تروي لصبايا الجيل وفتيته ، ايام ذلك الصراع الذي بهت العدو ولفّه في بحران فتستهل الرحمة مع الدمعة على الشهيد حسن الخراط ، وكم ضمت الغوطة الخضراء جسوم مجاهدات ماظن الثرى الا مترفقاً بهن ، اذا جادهن الماء نبت فوقهن الزهر ، فواحاً بعطر منهن لايبلى !

وفي المحنة الحمراء يوم ثار الجبل لثورة الوطن، وفيه بنو معروف وسلطانهم الاطرش المغوار لايعرفون الهوان ، هبو ابطالاً مناجيد ونساء مناضلات، فكان الجبل بأجمعه شعلة نار، لدفع الضيم وحماية الجار.

وهل كتب التاريخ سيرة اولئك الخاطئات ، اللاتي تأبين على الخطيئة ابان اضراب ثقيل طويل ، دام شهرين متتابعين ، ثاب فيه اللصوص والجارمون عن كل منكر لاجل الوطن فاقتدت البغايا بهم فاذا هن تائبات متأبيات على الفحشاء.

واذا كتبت الصفحة الاخير من تاريخ النضال للاستقلال كان للسوريات الابيّات يوم محفوف بالدم والنار ، استخففن فيه بالخوف ورضين بالجراح حين تعرضن للموت والخطر فكانت الفئة الاولى التي اسست الهلال الاحمر السوري اول من خف من نسوة الشام الى العون والفداء في سبيل الجلاء ، وفيهن فوج مغامر من اصيلات الوطنية والجهاد هن السيدات : اسماء خوري، ثريا حافظ الريس،

فاطمة وفلك دياب ، سنية وبدرية ايوبي، سامية مدرس، وحياة وصادية العظم ، وسواهن من المناضلات وفيهن السيدة الجليلة زهراء العابد

وما تزال المرأة السورية على طوابعها الروحية وحماستها الوطنية لم تتخلف عن النضال في زمن الاحتلال او في عهد الاستقلال، متتبعة آثاره واطواره، لم يتسرب اليها الوهن والضجر، على الرغم من طول الجهاد والنضال ، وبغتات الانقلاب بعد الاستقلال ، فاذا فترت الاحداث والخطوب هدأ النضال النسوي حيناً، وسرعان مايستجيب بغتة مستجيباً للحاجة والشعور

ولعل ابرز ظاهرة وطنية في حياة السورية المتعلمة وعيها القومي وتتبعها لحوادث التغير والتطور في الاوضاع السياسية والاجتماعية بعناية واستقصاء ،لاتعبر حماها الاراجيف ولا تبني رأيها الا على الحجة والبرهان ، ولئن بدا فيما مضى تفاوت في الشعور الوطني والشعبي بين مختلف الطبقات النسوية ، فان مرد هذا التفاوت الى ايثار الطائفة المترفة اسباب السلامة والعافية ، فكان اذا دهم الحمى خطب فادح لملمت هذه الفئة المترفة ماخف من اثقالها وغلا من احمالها ، واتخذت سبيلها هرباً الى مصر او لبنان،ناجية من زحمات الاحداث وصدمات الفجاآت،حتى اذا هدأت الشؤون وكان الشعب يومئذ يضمد جراحاته ويتفقد ضحايا العدوان ارتدت تلك الفئة الى بيوتها حامدة ربها على النجاة والخلاص ، وفي الحقبة الاخيرة جمعت الآلام والهموم على احساس متجاوب متقارب،فعم الشعور الوطني نساءنا جميعاً،مترفات وغير مترفات ، فما تحيق بالحمى ملمة من الملمات حتى يسري كهرباء

هذا الشعور في عروق الرجال والنساء على السواء ، ويتردد صدى السخط من ادنى البلاد الى اقصاها ، وقد تجلى مثل هذا الاحساس مواساة وحدباً على اخواننا النازحين من عرب فلسطين ، وفي جهود الجمعيات القومية والخيرية ، فنزلت الطبقة العليا الى السوق بكرائم نسوتها، يجمعن الغذاء والكساء ويسعفن من امضهم الجرح والتشريد

فاذا كانت المرأة السورية المثقفة قد ادركت بعض حاجتها وغايتها ان تكن بلغت بوعيها وشمائلها طرفاً مما تبتغي من آمالها الوطنية وحقوقها المشروعة، فانها لم تفرغ من نضالها البريء الذي لم تصطنعه سبيلاً الى حكم او منصب او تمثيل ، وهي مجاهدة على الايام في سبيل الذين لاحيلة لهم ولا وسيلة من المساكين والمحرومين علماً وقوتاً وهي مجندة حياتها وروحها لبيتها وأسرتها ، وكرامتها وعروبتها ، لاترتجي من اجل جهادها وتجندها إلا وجه الحق وفناءها ليبقى الوطن

وهذا النضال النسوي بشير بمطلع عهد جديد للمرأة السورية الواعية التي تؤدي رسالتها وتمضي الى اهدافها دون نصير او معوان الا العلم والايمان ، وان في الرجال المتعصبين المتصلبين من استهان بنهضتها وغرس الشوك في طريقها، فما عليها وهذا شأنها الا ان تناضل بالحجة والثقافة والاخلاق ، دون ان تحيد عن فطرتها وواجباتها الاولى وحينئذ يكثر الورد في طريقها ويقل الشوك ، وهي التي تمرست بالآفات والعقبات في نضالها ونهضتها ، فلن تعوقها واحدة منها دون الوصول الى غايتها المثلى .

مجالس الأدب (١)

عند نساء العرب

لاريب في ان الامة العربية من اعرق الامم التي برّزت في أدبها وأحاطته بالعناية والرعاية ، فكشف عن عصورها الزاهية والكالحة ، وكان لها ميراثا خالدا على الايام ، ولعل الشعر اروع ماعبر عن خواطر العرب وقرائحهم ، وأبدع ماصور طبائعهم ووقائعهم ، فقد سار معهم الى حومات الوغى ورفرف عليهم في ظلال السلم والامان وقديما قيل ان الشعر العربي كان في الجاهلية ديوان الامة ، فيه تجد أنباء ايامها وألوان حياتها وصدى امجادها ، ففي مجاهل ذلك العهد البعيد الذي ترامت اطرافه على الجزيرة العربية كان للأدب حفاوة وجلالة ولأهله عزة ومنعة ، وحيثما اقيمت للأدب قيمته راجت بضاعة اهله ورجحت اقدارهم ، وكان ثمة مواسم موعودة ومجالس مشهودة يجتمع فيها الناس بعضهم الى بعض فيتناقلون الاشعار ، ويتبادلون الأخبار . وكان سوق عكاظ اكبر مجلس من مجالس الادب في جاهلية العرب ، فيه استطاعت الخنساء الشاعرة اخت صخر ، أن تنقد شعر حسان بن ثابت الانصاري ، وان تأخذ عليه مزالق في بيته المشهور الذي يقول فيه :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى
وأسيافنا من نجدة تقطر الدما

---

[١] ألقتها المؤلفة في دار المجمع العلمي العربي بدمشق بدعوة من المجمع الموقر

لقد كان عكاظ ـ ساعة وقفت فيه الخنساء تجادل حسانا تتسقط في شعره مواضع الزلل والخطل ـ حافلا باعجاب الرجال في أدب المرأة، شاهدا على مكانتها عندهم، وكأني أرى بعين الخيال ذلك الحشد الحافل الذي جلس في جمرته النابغة الذبياني في صفة له في عكاظ وعقدت فوقه راية الشعر على قبة حمراء من أدم، ووقفت الخنساء بين يديه تنتقد الرجال وتتصدى للاحكام الادبية قالت: ياحسان، لوقلت الجفان لأحسنت، لأن الجفان اكثر عدداً من الجفنات وقلت يلمعن ولو قلت يبرقن، وقلت في الضحى ولو قلت في الدجى، وعددت اسيافاً ولم تعد سيوفا، وجعلت الدم يقطر ولم تجعله سيالا فكان بيتك الذي تفاخر فيه وتنافر اقل شأنا واضعف معنى. فخجل حسان وسحب وراءه ذيول الخيبة في حضور شاعرة ناقدة شهد لها الفرزدق وأنداده بأنها بذت بشعرها فحول الشعراء.

ولو عدنا الى جاهلية ابعد، الى ايام امرىء القيس، لأشرفت علينا المرأة التي يسمونها أم جندب ويقول فيها امرؤ القيس:

خليلي مرّا بي على ام جندب
لنقضي لبانات الفؤاد المعذب

وام جندب هذه كان لها مع امرىء القيس مواقف فيها نقد وتنقير، وفيها بعد نظر وتفكير، كانت تصغى لشعر شاعرها وتكشف عن رأيها فيه، بجرأة وصراحة، ولو سلمت كل نصوص التاريخ الجاهلي ووصلت الى ايدينا لوجدنا فيها اخبارا عن ام جندب التي كان يمر بها الملك الضليل ليقضي عندها لبانات فؤاده المعذب

ولقد تزوجها حين هرب من المنذر ابن ماء السماء ، والتجأ الى جبل طيء «أجأ وسلمى» فأجاره اولئك القوم وزوجوه منها ، وانه ليأتيه ذات صباح علقمة وهو جاثم في خيمته وجنبه ام جندب فيتذاكران الشعر ويتنافران فيه ، ثم يتحاكمان الى ام جندب بعد ان ينشد امرؤ القيس قصيدته التي يقول فيها :

فانكما ان تنظراني ساعـــة
من الدهر تنفعني لدى ام جندب
الم تريانى كلما جئت زائرا
وجـــدت بها طيبا ولم تتطيب

ويقول فيها :

فانك لم يفخر عليك كفاخر
ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

حتى اذا انتهى امرؤ القيس من قصيدته التي يشيد فيها بمحاسن ام جندب اخذ علقمة ينشد أبياتا من شعره فهزها السرور والاعجاب ، وفضلته على زوجها غير مخدوعة بشعره فيها ، فغضب عليها امرؤ القيس وكان بينهما شقاق وفراق ، فطلقها انتقاما منها وتزوجها علقمة من بعده .

فياسقى الله عبداً كان على جاهليته قد أنجب من النساء حاكمتين في الادب حازمتين في نقده ، هما ام جندب والخنساء اللتان كانتا من اوليات النساء اللاتي أوتين على الفطرة حصافة الفكر وحضور البديهة وصحة الاحكام .

وينحدر بنا الزمان فنجد من النساء شاعرات وخطيبات ، يقلن

الشعر عفو الخاطر وعلى سجية الالهام ، ويرتجلن الكلام بحضرة الخلفاء والأمراء فيكون فيه فصل الخطاب ، كما وقع للوافدات على معاوية في مجلسه المهيب اذ كن يصدعنه بالحجة الدامغة ، ويقرعن سمعه بحرية القول وروعة البيان مفضلات خصومه عليه ، فيفتح لهم هذا الاموي العظيم صدره الحليم ويخرجن من عنده مكرمات محترمات ، مثقلات بالعطايا والهبات .

هذه إلمامة ببعض مجالس الادب عند نساء العرب ، بل هي سوانح وهنيهات كان للمرأة فيها لحظات انتقاد وبديهة احكام وحرية تفكير وتعبير ، اما المجالس الكبرى التي لمعت في سمائها كواكب الأدبيات فكان أسطعها في عهد الامويين الذي أينع الادب في آفاقهم ودنت قطوفه في دنياهم ، على أن اشهر اللواتي اختصهن الله بمواهب الشعر والجمال وبدائع النقد والنكتة هن من البرزات الشريفات كعائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، وعمرة الجمحية ، وثريا بنت علي وغيرهن من نساء قريش المترفات الظريفات .

هؤلاء وسواهن خلعن على الحياة الاجتماعية طرافة ومرحا ، وشاركن الرجال في تجديد الادب ورواج سوقه ونشره بين الناس . فلقد كان لهن مجالس يفد اليها الشعراء ليتناشدوا القريض فيفاضلن بينهم ويشرحن فنون شعرهم ودقائق معانيها ثم يجزلن لهم الهدايا والجوائز ، بيد ان احفل مجلس نسائي تألقت فيه قرائح الشعراء المطبوعين ولمعت عبقرياتهم هو مجلس السيدة سكينة بنت الحسين زعيمة المساجلات الشعرية ، والمطارحات الادبية في زهوة ايامها

وكأني بها وقد جلست في بهوها الرحيب متكئة على وثير الحشايا تحف بها الصواحب والوصائف وخلفها جارية زنجية تروح عنها حرّ العشايا بمروحة من ريش النعام ، واذا امامها على نمارق مصفوفة أشعر من قال شعرا في عصر الامويين ، الذي فاضت فيه الخيرات على اهل الالمعية والاصوات، وهم جرير والفرزدق وكثير عزة وجميل بثينة ونصيب ، جاءوا عميدة المجلس بشعرهم وكل منهم يثني نفسه برضاها عنه واعجابها بقريضه، فقالت السيدة سكينة للفرزدق كيف تقول :

فلما استوت رجلاي في الارض قالتا

أحي يرجى ام قتيل نغادره

فقلت ارفعا الامراس لايشعروا بنا

وأقبلت في اعجاز ليل ابادره

ابادر بوابين قد وكلوا بنا

وأحمر من ساج تبص مسامره

ماذا حملك على إفشاء سرها وسرك ، هلا سترت عليها وعليك ، ثم التفتت سكينة الى جرير وقالت له أأنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

وقت الزيارة فارجعي بسلام

قال نعم . قالت : أفلا اخذت بيدها وانت عفيف وفيك ضعف . ثم نقدت غيره حتى جاء دور جميل فأعجبت بقوله :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة

بوادي القرى اني اذن لسعيد

لكل حديث بينهن بشاشة

وكل قتيل عندهن شهيد

ثم منحتهم من الجوائز الغالية مالم يحلموا بمثله من الخلفاء الذين كانوا يحبون الشعراء ويحدبون عليهم ، فكانوا يتقبلون حكمها الذي لايرد بقبول حسن وهي العنيفة في نقدها ، المزاحة في طبعها ، النزاعة الى التهكم والتندر . فكان مجلسها سبيلا لتنافسهم في الحظوة برضاها ونوالها ليكسبوا الصيت البعيد والمثوبة الراجحة .

ولم يقتصر مجلس السيدة سكينة على رعاية الادب ، وانما كانت فيه عناية بالطرب ، وفي هذا المجلس دقت مزاهر ونقرت اعواد وكان يؤثر فيه صوت على صوت ولحن على لحن .

كذلك كانت عائشة بنت طلحة حفيدة ابي بكر الصديق تكرم الشعراء وتستمع لما يقولون ، فتقارن بين شاعر وشاعر ، وتوازن بين قصيد وقصيد ، ولئن تسرب الشك الى هذه الاخبار المتواترة عن تلك المجالس النسائية وعدها بعضهم من الكبائر التي ترفعت عنها الشريفات المحصنات تحرجا من جلوسهن إلى الشعراء ورواتهم لما لهن من الصلات بآل الرسول وصحبه الاكرمين ، فان الأخذ بصحة هذه الاخبار تكريم مضاعف لهن إذ أن زعيمة عظيمة مثل سكينة بنت الحسين يأتيها الشعراء على عصمة وحشمة محتكمين اليها فتنقد اشعارهم وتكرمهم لما يزيدها شرفا في الادب على شرف في النسب . واذا اقبل عصر بني العباس ومرّ على الناس بخيله ورجله ، فرسانه على الصافنات الجياد يدكون الحصون ويفتحون الفتح المبين ايام السفاح

والمنصور ، فلا يكون في الفترة الالى منه ذكر للادب النسوي ، حتى اذا أغمدت السيوف وحبست الخيول ، قامت بغداد على ارض العراق ميادة بالبذخ والترف ، طالعة من مغانيها حسان الجواري والقيان ، فكان منهن المنادمات والمغنيات ، ولم يكن من حرائر ذلك العصر شبيهات بأديبات العصر الاموي اللواتي اسهمن في تجديد الادب ورعايته . لكن هنالك على العدوة اليسرى من حوض البحر الابيض المتوسط حيث رقت الطبيعة ورفت على ضفاف الوادي الكبير والوادي الصغير قام ملك للعرب رفيع العماد هو ملك الاندلس التي تسامى خيال اهلها وفاحت من فنونهم ازاهير الموشحات عاطرة بريا الشاعرين ابن هانىء ولسان الدين ، وقد كانت قرطبة جنة الدنيا في ذلك العهد السعيد ، فيها اثمرت قرائح النساء ، وانحسرت مواهبهن عن ارق الاشعار وابدع الخطوط ، كما يرى ابن فياض في تاريخه عن اخبار قرطبة ـ التي ظهر فيها مائة وسبعون امرأة ، كلهن يكتبن المصاحف الشريفة بالخط الكوفي ، الى جانب الاديبات والشاعرات الصادحات كالعنادل ، بشعر أنبتته غرناطة وبلنسية وقرطبة فيه من فن الحمراء والزهراء كل خالب اخاذ .

أما أعظم مجلس ادبي قام في قرطبة فهو مجلس ولادة بنت المستكفي بالله احد الخلفاء الامويين في الاندلس كان يختلف اليه اكابر الامراء والوزراء ، ويسارع اليه الشعراء والادباء فتحاورهم صاحبة المجلس وتناظرهم وتأخذ على آثارهم بالمغامز فتنقدها بانصاف واقتدار ، وتؤثر شاعرا على شاعر ومناظراً على مناظر . وكانت

ولادة شاعرة وراوية لمنظوم العرب ، وتحت قباب مجلسها بزغ نجم الشاعر ابن زيدون وتفتح نبوغه. وكان لولادة مع هذا الشاعر الذي جعل للاندلس مقاما معلوما في ديوان العرب علائق وثقى فحسده الوزير ابن عبدوس وسجنه وشرده وصادر امواله ، فقال ابن زيدون بولادة قصيدته الخالدة :

اضحى التنائي بديلا من تدانينا

ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

في هذا المجلس الادبي لقي الشاعر مصرعه وكثر حساده وشانئوه لان ولادة كانت به محتفية وله مقربة ، وكان نصيبه من حساده ادهى وأمر من نصيب عمر بن ابى ربيعة الذي كانت تكرمه السيدة سكينة حتى اثارت عليه الحساد واكثرت الشانئين . فان ابن زيدون كتب رسالة على لسان ولادة سماها الادباء بالرسالة الهزلية لانه جعلها تهكماً بالوزير الحاسد خصمه ومزاحمه في مجلس ولادة ، هذا المجلس الذي توافر فيه المرح والنعمى ، وشاع فيه الفتون والبهجة وكأني اتصور ولادة في مجلسها الانيق وبجنبها صديقتها مهجة الشاعرة القرطبية تحف بها الاماء ، ويدخل عليها العبيد ، بأيديهم الصواني والصحاف فيطاف بها على الادباء والجلساء المقربين ليعبوا سائغ الشراب ، ويأكلوا من الطيبات ، فاذا انتهوا من ذلك تناشدوا الاشعار وتداولوا الأخبار ، وولادة تميل بالسمع نحو شاعر عن يمين ثم تنقلب باللحاظ نحو راوٍ عن شمال ، او تهمس همسات في سمع مهجة ومجامر البخور يتصاعد منها عبق العنبر فيعقد له دخان رقيق في سماء

المكان حتى ساعة متأخرة من عشية سمار او هدأة عميقة من ليلة قمراء ولم يكن مجلس ولادة خيالا مرّ في دنيا الادب، ولو لم يطلع غير ابن زيدون ورسالته الهزلية لكفاه تخليداً على تراخي الزمان بل كان حقيقة متألقة في تاريخ المرأة العربية تحت سماء الأندلس ملأت تلك الرباع الخضراء وانثنت على المشرق صوب اللآلىء العربية .

ولقد يمتد بي سبيل البحث ، اذا استوفيت الكلام على مجالس الادب النسوي في بلاد الاندلس، فلا عد الآن من تلك الايام الخالية من جاهلية العرب وعصور الاسلام وعهود الاندلس، الى عصرنا الحاضر فأعرض مجلساً للادب قام منذ ثلاثين عاما على ارض الكنانة ، في دارة من دارات العبقرية في القاهرة الساحرة، هناك كانت تتصدر فيه الجلوس لعظماء الرجال ادبية نابغة هوى نجمها منذ عهد قريب ، وغاب عن عالم الادب محياها الوضيء الذي تلألأ بالعبقرية والعذوبة نحواً من ربع قرن ، هذه الاديبة هي الآنسة « مي » التي كانت فلتة من فلتات العرب وأفذاذهم في العصر الحديث ارسلها لبنان الى مصر لتكون الحجة على الرجال بعذب المقال وسحر البيان ، لقد طلعت على وادي النيل في مستهل فتوتها فتفتحت عبقريتها الغضة على جمال لبنان ، وتفجر نبوغها عند سفوح الأهرام فجنت من ثمرات الثقافتين العربية والغربية ماجعلها آية في سفر المرأة الشرقية ، واعجوبة في مواهبها المنوعة ، وكان لها من توجيه ابيها الصحافي الكبير وصحبه الادباء ماحفزها الى الظهور بمجلس بعيد الى الاذهان ذكرى المجالس النسوية في عصور الحجاز والعراق والاندلس، اما هذا المجلس الحافل

بأرباب الشعر والادب والسياسة فكان يفتح ابوابه لمرتاديه كل يوم ثلاثاء فيأتيه الادباء شرقيين وغربيين ممن طواهم الموت ولم يستطع ان يطوي ذكرهم وآثارهم كالشعراء الملهمين اسماعيل صبري وولي الدين يكن وحافظ ابراهيم وخليل مطران رحمهم الله . ومن الاحياء المعاصرين اعلام الادب والصحافة والفلسفة : احمد لطفي السيد والعقاد وطه حسين والزيات وغيرهم من جبابرة العقول والاقلام . فاذا فات احدهم مجلس من مجالس « مي » اسف وندم لانه يعلم ان كل سانحة من سوانحه هي وحي للادب الموهوب ووعي شامل لأشتات المعرفة والثقافة .

وقد اتفق ان المرحوم اسماعيل صبري كان بعيدا عن القاهرة في يوم ثلاثاء فأرسل برقية للانسة « مي » يأسف لغيابه عن مجلسها فيها هذان البيتان :

روحي على بعض دور الحي حائمة
كظامىء الطير حواما على الماء
ان لم امتع بمي ناظريّ غـــدا
لاكان صبحك يايوم الثـــلاثاء

وما احسب الشاعر كان مغبونا في اجرة «البرقية» ، وقد فاته ماهو اعز لديه منها ، فاته التمتع بأطايب الحديث عند نابغة الجيل .

ومن قبل ميّ ومجلسها في وادي النيل ظهر مجلس رفيع لاقطاب الرأي والادب والسياسة في بهو الاديبة النبيلة الاميرة «نازلي فاضل» التي كان يحفل مجلسها الوقور بأمثال الامام المصلح الشيخ محمد عبده

ونصير المرأة قاسم أمين وسواهما من عظماء الرجال وصفوة الادباء .

وبعد «مي» تلفت القوم في مصر الى نور جديد طلع من صوب الزعيمة الكريمة السيدة هدى شعراوي يرحمها الله، فكان منزلها الشرقي الأنيق الذي يبعث مشهده ذكرى القصور البغدادية والاندلسية بشرفاته ورواشنه يدعو نخبة المفكرين والسياسيين الى مجلس صاحبته التي كانت تضفي عليه من أنسها واريحيتها مايصله بالمجالس النسوية السابقة في تاريخ مصر الحديث ولقد دعيت اليه ذات عشية وشهدت من صنوف رواده من كانوا المع رجال المجتمع المصري ونسائه ولست بناسية ابداً حفلاً في تلك الدار الفخمة ضم من الكبراء لطفي السيد باشا والمغفور له احمد حسنين باشا والدكتور حسين هيكل باشا وهنالك عرفت نابغة الصحافة العربية الاستاذ فكري اباظه

وهل كان بيت «السعيد» الذي انجب السعيدات كريمة، وعظيمة، وامينة ، الا روضة غناء من اطرف روضات الفكر في مصر ؟ وكانت ثمرات هذا البستان قبل الأوان ، فقد اطلع « الكريمة » صانعة لعقول المصريات ، « والعظيمة » طبيبة من سوابق الطبيبات ، « والامينة » كاتبة في طليعة الكاتبات ، وان مجلس امينة لحافل بألوان من الذكر والصحافة . جامع بين ثقافة الشرق والغرب ، فيعطي رواده صورة حية عن المرأة المصرية المثقفة ، وغير هذا المجلس ندوات اخر لها طوابعها الخاصة في النشاط الثقافي والاجتماعي والسياسي، وثمة في مصر ولبنان ندوات نسوية تتسم بمياسم غربية يختلف اليها هواة الأدب الغربي وتظهر هذه المجالس بمظاهر اريستقراطية ، فارضها

تعيش في قلب القاهرة أو بيروت ، وروحها تخفق بلندن أو باريس

ومنذ ربع قرن كان مجلس الاديبة ماري عجمي يحتفي بشعراء دمشق وادبائها ، وفي هذا المجلس كان يدور الحوار ويطول النقاش حول مشاكل النقد والادب ولم يكن الحديث جافاً عنيفاً ، لان الآنسة ماري كانت تطبع مجلسها بطوابع النكتة التي هي ابداً على طرف لسانها

كذلك اتصلت في هذه المجالس حلقات السلسلة الادبية التي صاغتها اديبات العرب قديماً وحديثا ، كانت سلسلة اغلى من الذهب ، بل هي حلى لاتبلى ، هي في آذان الزمان اسمى من الاقراط البعيدة المهاوي ، المتدلية من آذان الحسان ، ولئن طوى تاريخ الادب سجل هذه المجالس النسائية القديمة فان في الامل المعقود والرجاء المنشود ان تتجدد امثالها فتكون الحلقة الجديدة في هذه السلسلة الذهبية الخالدة التي امسكت بأولها ام جندب زوجة امرىء القيس واخذت بطرفها الاخير فضليات السيدات في مصر والشام ولبنان

واذا تبجح المكابرون وجعلوا من مجالس الادب فى بلاد الغرب اسباب نهضة شاملة فلا ينبغي ان يتناسوا ان مجالس الادب عند نساء العرب كانت السباقة في الدهر الى الظهور والى التأثير في الحياة الاجتماعية والادبية ، فان مجلس سكينة ومجلس ولادة اقدم من اول مجلس لاديبات الغرب ، ومجالس هؤلاء لم تقم الا فى عصور متأخرة كما يشهد التاريخ .

واذا كان لابد في الادب المقارن من ان نناظر ونشابه بين ادبنا وادب الغرب كان لي ان ازهو اعتزازاً بمجالسنا النسوية القديمة التي

سبقت بقرون مديدة عديدة ، يرجع حدها البعيد الى اربعة عشر قرنا ،على حين نجد ان اقدم الندوات الادبية النسوية في الغرب لايعود الى اكثر من اربعة قرون ، وتبدو ثمة ظاهرة من ظواهر المرافقة والموافقة بين الادب والمجتمع اذ كان ظهور المجالس الادبية النسائية عند العرب في اطوار ازدهار الحياة الفكرية والادبية ، فلولا روعة العصر الاموي في شعرائه الغزلين والهجائين لما طلع مجلس بنت الحسين ولولا ابن عبدوس وابن زيدون وتلك الطائفة من شعراء الاندلس وادبائها لما كتب لمجلس ولادة حق الحياة والظهور

ولما انبعثت اوربة بعد ثورة نابليون اضفى هذا الانبعاث على مجالس الادب ابداعاً جديدا اذ كانت هذه المجالس قبل الثورة لاتنطبع بالادب وحده كمجالس دوسفينيه وبومبادور ، اما مجالس ريكاميه ودوستال وسواهما فكانت مشرقة بزهرات المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر ، وقد فاح شذاها في اوربة كلها ، وتركت تلك المجالس النسوية اثراً عميقاً في ادب الغرب المعاصر

. . .

هذه لمحة من لمحات العبقرية النسوية في الشرق والغرب ظهرت في تلك الندوات الادبية التي اطلعت ازاهير نبوغ في الجنسين كانت نفحاتها جمام الروح وانس العقول

بطولة المرأة العربية

على الارض نار ، وفوق البحار دمار ، والجار يغزو الجار ، هذه دأب الظالمين في ايامنا الكالحة السود ، يزهقون الحق وفي طغيانهم يعمهون ، ساخرين من السلام والوئام ، دامرين على الضعاف بالقنابل والحراب ، ليقيموا على جماجم الضحايا ملكا رحيبا .

لقد غلظت قلوبهم ، وصفقت وجوههم ، فما يعبأون بالدمع المسفوح ، ولا بالدم المسفوك .

عجبا . . . لا الحضارة نزعت من طباعهم الشراسة ، واستلت من صدورهم الحسد والكيد والطمع ، ولا الثقافة استطاعت ان تعلمهم معاني الحق والعدل والرحمة ، حتى صدق فيهم قول ولي الدين :

يظلم الناس بعضهم منذ كانوا

طال ظلم الانسان للانسان

لم اكد امثل اوزار الحرب ورزاياها ، حتى اخذني التأمل في بنات حنسي ، فرأيت منهن في بلاد الغرب من لففن الرؤوس بالبياض ووضعن على السواعد رباطا من الصليب الاحمر ، فضمدن الجروح وحسمن النزيف ، وسارعن للنجدة والاسعاف ، ثم هزني الاعجاب بتضحية النساء اللاتي حللن في مختلف المصانع والمصالح محل الرجال.

وعادني التأمل في ساح الشرف ومجال البطولة ، فرأيت منهن في قديم الدهر «جان دارك» تقود جيشاً لانقاذ امتها من الهوان ،

---

[١] كتبت في أثناء الحرب

اذا ذكر قومها ، طأطأوا الرؤوس وقالوا عليها السلام ، ثم قفل الزمان راجعاً وضن بالانداد ، فاذا الحرب الكبرى الثانية تفتح شدقيها لابتلاع الناس ، فيكون للمرأة فيها غير المواساة والحدب على الجريح مهمة يعجز عنها الرجال ، وتضؤل حيالها معامع القتال ، تلك هي تسقط انباء السفارات لنقل الاسرار ، وايداع الاخبار والتوصل الى خطط التعبئات وادارة الوقيعات .

قلت لنفسي : اين هؤلاء من نساء العرب في ماضيات الحروب . واين الصدمات التي تلقينها ، والمنايا التي رأينها مما تكابد اليوم نساء الغرب على تطاول الزمان وتباين العتاد بينها فتمثلت من اولئك العربيات اسرابا كن طلائع او ردائف للاجناد والزحوف ، يضربن الدفوف ويصفقن بالكفوف ، ويصحن منشدات هاتفات حتى يحتدم الكفاح وتهيج الحماسة في النفوس ، فاذا رآهم الجنود ، وسمعوا تلك الاهازيج اللاهبة والزغاريد الصاخبة ، هبوا هبوب الرياح لينصبوا على الاعداء كانصباب البلاء .

يابوماً لبطل مقنع ، قتل من قتل وطعن من طعن ، وهو لايلوي على شيء فلما رآه خالد بن الوليد في وقعة اجنادين يحسن الكر والفر تساءل : ليت شعري من هذا الفارس المغوار ؟ ولما هجم الروم حمل عليهم الفارس المتلفع ، فكان يزعزع كتائبهم ، ويزحزح مواكبهم حتى ظنه الجنود انه خالد نفسه ، فسألوا قائدهم عن ذلك البطل المغامر ، ثم تنادوا اليه وناشدوه كشف الحجاب عن محياه ، فما احار الجواب ، ولما الح عليه خالد اغمد الفارس سيفه وازاح اللثام عن

وجهه ، فاذا طلعة وسيمة تشرق بالبهاء والسناء ، واذا هي من بنات حواء ، فرفع اليها صرعاها رؤوسهم باسمين ، وهم بين الموت والحياة ، وكان آخر صوت مر بسامعهم قول البطلة المجاهدة الزعيم الغطريف خالد بن الوليد : انا خولة الكندية اخت ضرار بن الازور من بقايا اولاد الملوك ، لم اعرض عنك الا حيـــاء منك ، لاني من ذوات الخدور وبنات الستور ، أتيت مع نساء العرب لنشد عضدك في الجهاد .

ولما استخلصت نفسها ونساء قومها من سرايا الروم انشدت :

نحن بنـــات تبـــع وحمير

وضربنا في القوم ليس ينكر

لأننا في الحرب نار تسعر

اليوم تسقون العذاب الاكبر

وماذا كان حال الخنساء حين استشهد اولادها الاربعة في وقعة القادسية ؟ انها قالت : الحمد لله الذي شرفني بموتهم شهداء ، وارجو ان يجمعني بهم في مستقر رحمته .

على ان تلك الشاعرة النواحة لم تبك فلذات كبدها لان الموت تخطفهم في الحرب ، وانما ابكاها صخر طويلا لانه مات على فراشه مغدورا. أفما يزال يدوّي في سمع الزمان حوار اسماء بنت ابى بكر لابنها عبد الله بن الزبير ، وقد جاءها مودعا قبل ان يعود للجهاد ، فشيعته بهذا القول : امض في قتالك ياعبدالله فوالذي نفسي بيده لأن اراك مجندلا صريعا في سبيل الحق خير من ان اراك مذعنا للباطل ...

ولما صلبه الحجاج ، ونصب جثته على الجذع عاما كاملا سمعنا في

التمثيل بها ، كانت امه اسماء تتساءل بتهكم و كبرياء ، اما آن لهذا الفارس ان يترجل ؟ فأية تضحية تلك التي جادت بها هذه المرأة الكهيفة الشريفة ، وأية بطولة تلك التي عزت في الآباء لتكون للأمهات مثلا على الزمان ؟

ثم أذا كرة ضحوة النهار من غزوة أحد ؟ اصحرت اليها نسيبة المازنية ، فكانت تأسو الجراح وتسقي العطاش ، ولما اشتد القتال انتضت سيفها ودمرت على الصفوف المتلاحمة ، وطفقت تصول وتجول بين يدي رسول الله ، وكم دفعت عنه الأذى وردت الردى ، حتى اصيبت بجراح من طعنات الاسنة ورميات السهام وضربات السيوف ، فلم تعبأ بتزيفها الصبيب ، وقد اخذت بروعة الجهاد ، وحلاوة الظفر ، فشده من بطولتها المغاوير ، وشهد بها الأعداء . ولما اقبلت على النبي المجاهد بارك عليها ودعا لها بالجنة ...

وفي الوقعة التي قتل فيها مسيلمة الكذاب حلفت نسيبة بالله لتعودن الى الجهاد فذهبت الى اليمامة ، وكافحت في حومة الوغى لنصرة الحق وازهاق الباطل ، وعادت منها مبتورة اليد ، دون ان تبالي ماأصابها ، فقد اظفرها الله والمجاهدين على المنافقين ، وشهدت في المعركة عدو الحق مقتولا .

وكرّ بي تاريخ العرب صفحات بعد صفحات ، وكم في مطاويه من مروءة المرأة وحميتها ، فاذا انا بعائشة ام المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم قد ركبت هودجها في وقعة الجمل ، واذا السهام تأخذها من كل جانب ، وهي تستنفر الابطال وتدفعهم الى النضال ، حتى

صار هودجها من كثرة ما نضحته السهام كظهر القنفذ، وكان المناجيد من المسلمين قد امسكوا بعنان الجمل فمزقت ايديهم وداستهم الخيول غير ان ذلك العنان لم يخل من قائد يجرّه حتى قطعت عليه عشرات الزنود.

هذه صور من بطولة المرأة في حرب الحسام والسنان. اما بطولتها في تأييد الحق باللسان، بين جبابرة الامراء والولاة فأبرع وابدع، وحسبك مثالا ذوات الجرأة والبلاغة والوفاء في صفوف «صفين» ممن صدعن اسماع الخصوم بحرية القول ومضاء الرأي، اولئك صواحب الامام علي - كرم الله وجهه - اللائي وفدن على معاوية، وقرعنه في مجلسه المهيب بالحجة الدامغة والعتب العنيف.

ولئن عدنا الى خالدات المآثر والمساعي في نبذ الخصام ونشر السلام عند نساء الجاهلية، لرأينا حرب داحس والغبراء جرت حروبا بين بني عبس وبني ذبيان ظلت متسعرة متفجرة، كأنها البركان، وقد كادت تلف العرب بجحيمها دهرا طويلا لو لم تطفئها امرأة رزان، هي بهية بنت أوس الطائي التي زوجها ابوها من الحارث بن العوف المري، فلما رأته يتهادى في زينة العرس نأت عنه وأبت على نفسها ان تكون زوجا له، والعرب يقتتل بعضهم بعضا فما زالت تؤثر حميته وتذكي نجدته حتى خرج لساعته الى صاحبه خارجة بن سنان، فنهدا الى المحتربين وأصلحا ذات بينهم ودفعا الديات من اموالهما حتى تهادنوا، وفي هذا تغنى شاعر الجاهلية زهير بن ابي سلمى بقوله:

سعى ساعيا عوف بن مرة بعدما
تبذل مابين العشيرة بالدم

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجـــدنا
على كل حال من سحيل ومبرم
تدار كتما عبسا وذبيان بعد ما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وما الحرب الا ماعلمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

كذلك كانت مواقف العربيات المشرفة ، سواء كانت الدنيا حربا ام سلما ، فواعجبا لتلك الانوثة الناعمة الوديعة، كيف تستحيل بطولة باهرة وتفدية غالية في خوض الاهوال والنضال ، وفي السعي لتوطيد السلام والامان وهل ارضعت المرأة العربية طفلها الا من افاويق العزة والوفاء ؟ وهل قصت عليه وهو يافع وفتى الا ايام العرب وسير ابطالهم واجوادهم ؟ وهل صبت في عزيمته وهو رجل غير الشهامة والطموح والشمم .

وقد يضيق المجال عن تعداد الشمائل والمآثر التي خلدتها ربات البطولة وامهات الابطال ، ولقد كان امرهن في ذلك عجبا كأنه من الاساطير، ووالله ماانقطع حبل النسب بين اولئك المنجبات الفضليات وبين خلائفهن الأبيّات في مراحل العصور ، وكيف تنقطع وشائج البطولة النسائية وصوت التاريخ مايزال مدويا في المسامع والآفاق عن بسالة المرأة العربية التي تسير على غرار الاسلاف في اباء الضيم والاعتزاز بالشرف وحفظ الذمار ، سواء في ذلك المسيحية السمحة

التي فاض قلبها بالشهامة والوئام، أو المسلمة العصماء التي امتلات نفسها بالمروءة والسلام ، و كيف اكتفي بالكلام على نساء العرب في ماضيات الحروب ، والحرب العالمية حافلة بجهادهن ، فان منهن من رفعت عقيرتها بالحق امام جبابرة الحكام فأنقذت من الردى والهوان من انقذت وادارت ملاجيء الاحسان وساعفت في المصحات ، ثم انحسرت تلك السنون عن عهد جديد اشرقت فيه تباشير النهضة النسوية الحديثة ، على ايدي طائفة من المثقفات الواعيات .

فالمرأة العربية التي شاركت الرجل في بناء الأمة وخلق عبقريتها ، وسجل لها التاريخ بطولة في الحرب ومآثر في السلم ، ستبقى ابدا منار الهمم ومنار الظلم مادامت تولي وجهها شطر المثل العليا ، وتغرس في نفوس اولادها حب الخير والحق والوطن .

هل المرأة وفية ؟

تجول في خاطري قصتان : انهما لتلوحان كما تتلوى افعيان ، كل واحدة منهما تحمل السم الزعاف. وقد ذكرت وانا افكر فيهما قول الجاحظ في اول كتاب « العصا » : لاتلد الحية الا حية . فقلت اي الحيتين ولدت الاخرى ؟

اما السم الزعاف فسيرى القارىء مكنونه ، واما القصتان فأحدهما لأديب التهكم الفرنسي « فولتير » ، والثانية للزعيمة الصينية زوجة شنغ كاي شيك واين كان فولتير حياً بيننا ، فلا يعنيني ماسيكون من أمره مع السيدة الصينية هل كان يشكوها الى محاكم الادب او يترك امرها الى اهل النقد. وانما الذي يعنيني وينبغي ان لايفوتني الاهتمام به ان كلتا القصتين تخلعان لباس الخيانة على المرأة وتدعيان ان لاوفاء عندها ماعاشت بين الرجال ...

ففي القصة الصينية يؤتي الشيخ الوقور « تشوانغتشو » لباب الحكمة ، ويوهب إتيان المعجزات ويزهد في مناصب الحكم وألقابه ، فلما عرضت عليه الوزارة فرّ بزوجته يخبط في الوادي هائما على وجهه ، فرارا من هذه الوزارة التي رأى فيها ظلم الانسان لاخيه الانسان ، قانعا بزوجته المخلصة الأمينة ، التي كانت تهدهد نفسه بالحب والوفاء فمرّا في بعض الطرق بامرأة مجلببة بالحداد ، مكبة على قبر رطب التراب ، وبيدها مروحة تلوح بها فوقه ، فسألها الحكيم الصيني عن سبب فعلتها ، فقالت : انها عاهدت زوجها على ان تبقى وفية له بعد

موته حتى يجف تراب قبره ، وقد جاءها خاطب قبل ان يجف هذا التراب، فأكبت على هـذا الجدث تنشفه بالمروحة . فيجفل الحكيم من هـذه المرأة وتسري في صدره ريبة بوفاء زوجته، وطالما ادعت له انها وفية مخلصة .

وكان شيخا اشفى على الفنـاء ، فلما دمر عليه الموت اصطنعت زوجته الجزع والاشفاق ، فأخـذ عليها ان لاتتزوج بعده ، وان تدفنه في جانب مكتبه بداره ، ولبست عليه الحـداد فلم تدهن ولم تتزين،حتى وفد تلميذه من القرية النائية فاتخذ لها الاحابيل، ظاهرها الاسى وباطنها الهوى ، ثم اغراها بالزواج فنقضت عهدها ونكثت وفاءهاوغدت بالتلميذ متيمة مغرمة، وقد ارادهاعلى ان تنقل الضريح الى خربة خلف الدار وان تعطيه المـال ، وتعترف له انها لم تكن تعد زوجها حكيما عليما ، وما كانت تواتيه حبا .

فعلت كل هـذا راضية مطمئنة ، فاذا اقبلت عليها البهجة بعد العرس بوغتت بنازلة فادحة تفري حشى عروسها الذي اخذ يستغيث طالبا اليها ان تعالجه بمخ رجل مات منذ قريب فاذا اكل المخ عاجله الشفاء ، فتسارع المرأة الى ضريح زوجها ، وانها لتهدمه وتفكه ، وإذ بحكيم الصين يناديها من جوف القبر ، فبهتت المرأة لهول الخيانة وروعة البغتة .

هـذا مجمل القصة الصينية المخلوقة . واما القصة الفرنسية فان الحكيم البابلي زاديك وقد اصاب عينه العور في سبيل زوجته الاولى اذ كانت هذه الزوجة تكره ان تمـد بصرها الى سحنته فترى عواره،

وبقيت تنازعه امرها حتى طلقها ، وجعلته لايركن بعدها لوفاء النساء ، وما لبث ان تزوج بعدها امرأة كانت تظهر له من البر والوفاء مالاحد لتصويره ، فغدا بها يوما على ضاحية فرأيا امرأة في لباس الحداد مكبة حيال قبر وهي تحفر مجرى لساقية ، فسألاها الخبر ،فقالت : انها نذرت ان تبقى لزوجها وفية بعد وفاته مادامت الساقية تجري الى جانب قبره ، وقد جاءها خاطب يلح في زواجها ويستعجل ،فقامت الى الساقية تحول مجراها لتمضي بعيدة عن القبر ، فيكون ذلك تحلة لها من نذر الوفاء .

فيوقر الشك نفس الحكيم زاديك بزوجته الوفية ، وتدور ايام فيدركه الوهن ، ثم تنخذل قواه فاذا هو على سرير الموت ، وامرأته امامه باكيه لاهفة ، حالفة بأن تبقى على الوفاء له ، فيموت قرير العين بعد ان وصاها بدفنه في بيته ، ففعلت ، واقامت على قبره نادبة ناحبة ، حتى أتاها صديق له كان يعرف سره ودخيلته ، فاصطنع الوجوم لخطبها ، وبذل لها الود والمواساة ، ثم آل امرهما الى الغرام فتعاهدا على الزواج .

وان المرأة لفي ثوب عرسها ،اذا بعروسها صديق الحكيم زاديك يصرخ من الم في بطنه وهو مطروح ارضاً فتكب عليه فزعة مفدية ، فيقول لها : لايشفيني سوى ارنبة انف لرجل مات منذ قريب ، فتهب وبيدها سكين فتفتح عن زوجها المتوفي غطاء ضريحه ، وانها لتهم بجدع انفه اذا به يمسك بيدها ويقول لها : لقد كنت يازوجتي أعظم وفية !

وسيعلم القاريء الذي يشغلني وعيه ، اي سم عنيت بالقصتين ، وأية افعي كانت كل واحدة منهما تفح وتتلوى، وسيعرف معي ان هاتين القصتين ـ بما اكلت الواحدة من لحم الاخرى ـ عليهما سمات الوضع والتخيل ، وفيهما عنصر التهكم والتظرف .

كذلك مضت القصتان في آفاق الادب ودنيا المرأة ، ومضت معهما كثير من هـذه الاقاويل التي نسجها الخيال واصطنعها الحقد والتشفي ، على انها حقائق راهنـة وحجج دامغة على غـدر المرأة وبعدها عن الوفاء .

وليس لي ان احاسب الزعيمة الصينية التي طالما شغلتها السياسة عن مثل هذه القصة وقد جاءت بها مرددة مقلدة ، وانما أواخذ شيخ الساخرين فولتير بما آخـذ به قريع جنسه الشاعر الفريد دوموسيه الذي قال : ان فولتير دسّ الالحـاد والفساد في نفوس الشباب بعصره . وصور الشاعر موسيه في كتاب اعترافاته كيف جنى الشعراء والادباء بآرائهم وأهوائهم على الحقيقة والواقع .

ومن هذا القبيل مايردده رواة الاخبار من نوادر واحاديث يتفكهون بها ويتهكمون ، على غدر المرأة ومكرها، وانها لأقاويل تجري في ايثار وفاء الرجل فتزعم انه وحده الوفي الامين وان المرأة هي الخوانة الجحود .

وتأملت الى أية غاية من إفساد المجتمع يمكن ان تجري بالانسانية مثل هذه الأفهيات الهازلة ، فيكون منها ابداً غذاء لظنة الرجل بالمرأة ظن السوء ، وقد خلقت من نفسه ليعيشا في مودة ورحمة ،

حتى استقر في ظن أكثر الرجال خشية من المرأة وريبة فيها ، فنفروا من الزواج وآثروا الوحدة والعزوبة . وبلغ من سوء ظنهم ان ارتابوا في كل امرأة، فلو رأوها قانتة لله لقذفوها برجم الظنون ، واذا لمحوها في درب تجاوبت اصداء نفوسهم بالارتياب ، فحسبوها ذاهبة للقاء عاشق ، وان أبصروها تتبسم ظنوا تبسمها شباكا لصاحب ولم يقصروا معرتها في الزواج وانما عموها ، فهن عندهم ماكرة غادرة في كل مرافق الحياة ، وأسباب الصلات .

وانتصبت لهؤلاء المرجفين منارات دلتهم على عطفات الطريق الذي سلكوه في عداوة المرأة، وكانت تلك المنارات فلاسفة وادباء ابتلاهم الله بالعزلة وسوء الظن والوسواس ، فصرخ في اواسط اوربة شوبنهور معلنا فساد المرأة وغدرها ، ملعلعا صوته كناقوس على ميت ، فأفزع رجال الغرب من النساء ، وصاح في الشرق شيخ المعرة منددا بخبث المرأة ومكرها ، فصب عليها في لزومياته سوط عذاب ، وجردها من كل الفضائل ، وأعمها وأصمها الوفاء ... ، وكان ابو العلاء ـ يرحمه الله ـ بعيدا عن المرأة ، مصابا بالوسواس العقلي الذي جرّ عليه لوم الناقدين حين بحثوا عقيدته ودخيلته وتحيروا في ايمانه .

ولم يخل هذا العصر من لمز المرأة في وفائها كشيخ المتهكمين في الغرب برناردشو ، ومثله فريق من أدباء الشرق وخاصة في مصر ، فكان من دأب هؤلاء الاقربين أن يتندروا بمقالاتهم ويتظرفوا باتهام المرأة في وفائها ونهضتها ، بدلا من أن يزحزحوا العوائق دونها ،

ويأخذوا بيدها ويسددوا خطاها، فلو رجعت الى هؤلاء المتندرين أو المتطيرين لرأيت في حياة كل منهم امرأة لفحت نفسه بجحيم من كيدها فراح يأخذ النساء بجريرتها تشفيا وانتقاما .

ولكن رويد الرجال ، أفكان الغدر وقلة الوفاء مقصورين على المرأة وحدها دونهم ، أليس فيهم من لم يمس الوفاء قلبه ، دأبه الغدر والتنكر ، وما أهون عليه اذا أيسر أو تحلل من الشرع ان يفارق فينسى من كانت تألفه في المنزل الخشن .

قيدوا الرجل بقيود المرأة ثم انظروا في مواطن وفائه إن كان يظل فيها مكان لوفاء واحد . . .

على انه ، وهو في بحبوحة حريته ،ضنين بالوفاء الا ماندر ، ولو وفى لملأ الدنيا إشادة بصنعه ، وقل ان يفي بالحياة الزوجية اذ أن في الرجال من يبني بالمرأة الجديدة والزوجة السابقة لم يغبّر كفنها ، او يفكر في الثانية وهو يمشي مطرقا وراء نعش الأولى .

والرجل بطبعه أقدر على الغدر من المرأة وأكثر فزعا الى التحايل والتطاول والى التأويل والتعليل فيما ينقض من عهود ويخلف من وعود ، وان في مكر رجال السياسة ونكثهم للمعاهدات والوثائق لاكبر حجة للمرأة على غدر الرجال . وقد شاهدنا في حرب الامس أية قيمة للمواثيق المحرجة والعهود المغلظة التي كانت من طواغيت العدوان والطغيان

وما كانت كل النساء وفيات ، فالغدر والجحود من شيمة الانسان ، وهما من الادواء التي يشكو منها المجتمع منذ كان ،

ولعمري ان غـدر المرأة وتنكرها في كثير من الامر لآتيـان من الرجـل نفسه . ففي القصة التي نشرتها السيدة السياسية الصينية ، نتبين ان الحكيم الصيني هو الذي ارسل تلميذه الجميل ليغوي زوجته الوفية ، فغلبها على امرها بالحيلة ، والمرأة اضعف من الرجـل ، كما ان الحكيم البابلي هو الذي بعث بصديقه ليغري زوجته بالاحتيـال فترضى به زوجا جديدا .

فهات الرجل الوفي لكي تحمد المرأة الوفية ، وليس على من ند المعول ، ولو شئت الاستشهاد لضاق المجال ، ففي تاريخ العرب تقرأ العجب فيما أثر عن المرأة من وفاء ، كحـديث نسوة أيامي ـ حسانا وغنيات ـ أبين ان يتبدلن بأزواجهن ازواجا آخرين ، ولو امراء وسلاطين ، كان فيهن من لم تتحرج من ايثار الوفاء لزوجها بعد موته على ان ترضى بمحمد زوجا ، فامتدحها النبي مثنيا عليها ، بل كان وفاؤها للزوج حيا او ميتا ، لايعدله وفاء . وليس بفائتي ان اذكر عمرة بنت النعمان بن بشير التي قتلت باطلا على غير ذنب ، لانها أبت ان تقر لأعوان مصعب بن الزبير بكفر زوجها ، وتبرأ منه كما فعل قومه ، فجلدت وقتلت وفاء لزوجها وبقيا على ذكراه . وفيهن من شوهت محاسن وجهها ، فدقت ثناياها او جدعت أنفها لترد خطابها وتصدهم عن إغرائها وابتغائها . كنائلة زوج الشهيد عثمان بن عفان ، وخولة بنت زيان بعد مقتل زوجها عبد الله بن الزبير .

وبدا غدر الرجل في كثير من حوادث العرب ، فان «النوار» بعد أن سلمت قيادها الى ابن عمها الفرزدق ليزوجها من يراه لها أهلا ،

وبعده كفوا ،جاء بها الى مسجد قومه بني مجامع وقال لهم : اشهدوا انني زوجت نفسي من نوار ، فرحتـه نوار نافرة وهربت منه الى الحجام ، مستجيرة بابن الزبير ، وكانت قيود الأحكام تمنع مثل نوار ان تتكل عن الزواج بعد ان وكلت الى رجل أمر هذا الزواج .

ولكم كشر رجال مستبدون عن نيوب الغدر والجحود ، فاذا قلبت صفحة الزواج ،ونشرت صفحة السياسة والصداقة وجدت في تاريخ الغرب والشرق ، قديما وحديثا ، مثالب ليس مع مثلها نهوض حجة للرجال على وفائهم اكثر من النساء .

فويح حظ المرأة من الرجل ،انها آسفة متلهفة بعد ان كتب الرجل التاريخ وسجل الحوادث حسبما أملى هواه . ولكن من يدري لعل عهدا يقبل على المرأة فتكتب هي فيه التاريخ ، ويقرأ بعدها الرجال حوادث يقول يومئذ ناقدوها : ان المرأة كتبتها حسبما أملى هواها.

ولِمَ لايعود الانسان بجنسيه الى التصافي والانصاف فيزيل الرجل من صدره الغل للمرأة ، ويؤثر المودة والرحمـــة ، وما الحياة داراً نتعادى فيها ونتفانى ، وهي أهون ـ كما قال ابو الطيب ـ من هذا التعادي والتفاني .

كيف تتحدث ؟

جزى الله أبا حيان التوحيدي خيراً وخلوداً، فقد جعل في تصانيفه أحاديث للسمر والمنادمة، فيها إمتاع ومؤانسة، ونقد للأخلاق، وصفاء في البيان، فكان فيما رواه عن معاوية : أن جماعة من الكبراء، سألوا الأموي الأول عما هو أبقى في سرور الحياة وأجل في النفس وأحلى فقال معاوية : إنه الحديث ... فقد ذقت الطيبات ونعمت باللذات، وبلغت جهد مايبتغي المرء من دنياه، فلم أجد أبقى في النفس ولا أمتع للفكر من حلاوة الحديث وسحر الكلام ...

ولكم هششت لابي حيان كلما اطلعت على أحاديثه للوزير ابن العارض في ليالي الادب، ومجالي الشعر والبيان، فقارنت بين التوحيدي محدث الوزير، وبين شهرزاد محدثة الملك شهريار، ذلك يطوي الليالي في الحديث عن العروبه وأنساب العرب، مزهوا بأمجادهم ومآثرهم، راويا غرر أيامهم وحجولها، او محدثا يشكو بثه وهموم نفسه بفوات أيامه حين كان بحضرة الصاحب ابن عباد، الذي تجهم له حسدا، وشغله بالوراقة زمنا كاد يذهب معه بصره.

وتلك تقص أحسن القصص، لسلوى الملك وإلهائه عن الفتك بها، كما فتك بأمثالها من الحسان، في لياليه الماضيات.

قلت لألف ليلة وليلة : حدثينا عن دنياك الخالية التي ألقت على شرفنا الروحاني روعة وفتونا، وبعثت في آفاق الخيال بغداد بقبابها القائمة ونهرها الفياض وكرخها المخمور، باهرة الأعاجيب في قصص كالاساطير، عابقة بدخان البخور، وكأنه طيوب نشمها فننسج من

سحابها الهفهاف ، أكوانا من التهاويل ، مواجة بجنيات عبقريات أطلعتهن شهرزاد ، هذه المحدثة الساحرة التي صفدت جبارا من الطغاة في اغلال انوثتها وصباحتها، وكان سلاحها البتار لسانها العذب الخلاب ، فخيل إلي أني أرى الملك شهريار ، هذا الفاتك العاتي الذي قتل أنضر العرائس وأجمل الغيد ، لقد تمثل لي وهو هائج كالأسد ، مزبد كالموج ، والغضب يتفجر من وجهه وقد كوّر على رأسه عمامة مريشة ، غاص فيها رأسه ، ولف على كتفه وشاحا مذهبا مزركشا وحوله الحجاب والجواري يرفلون في ديباج أذهلهم عن غضبه ، وصرخاته تدوّي في أرجاء صرحه الممرد ، فتعقد الألسنة ، وترجف القلوب هولا وحزنا على غيد أماليد ، سفك دمائهن شهريار ، واحدة تلو واحدة عند كل صباح ...

هذه شهرزاد فلتة من فلتات البيان ، وبدعة في الحسان ، أرسلتها الاقدار لانقاذ بنات حواء من فتك شهريار ، فتبدأ ليلتها بكان ما كان في قديم الزمان ... ويرهف الملك سمعه مأخوذا بسحر حديثها ، حتى يدرك شهرزاد الصباح، فتسكت عن الكلام المباح..

لئن غابت شهرزاد فيما انطوى من آفاق بغداد ، فان اريج حديثها مايزال يعطر مواهب الأدباء في الشرق والغرب، فيستمدون من فنها ومن وحيها روائع القصص ، وهي وان استحوذت على النفوس بأساطيرها وتهاويلها،فان نساء يعربيات قد ملكن العقول والاسماع بمحادثات رائعات ، فيها مطارحة بالشعر ومقارعة بالرأي والحجة ونقد للأحكام ، ولعل معاوية الداهية ، الذي آثر الحديث

على كل مناعم الحياة ، كان مأخوذا بأحاديث النساء اللاتي كن يجلسن اليه متوددات مؤيدات ، أو يفدن عليه نافهات ناقدات .

. . .

ماأشبه الحديث الحلو من ذكية واعية بطفرة ماء قراح ، فهي ان لم تنقع الصدى ، وترو الغليل بلذّت ظمأ العيون ، ولعل هذا التصور وقع في خاطر الشاعر حين سمع امرأة تتحدث دون تكلف ولا فضول ، فتخلب الالباب بحلاوة نطقها وبراعة وصفها ، فراح يقول فيها وفي حديثها :

إن طال لم يمل وان هي أوجزت
ودّ المحدّث أنها لم توجز
شرك العقول ونزهة مامثلها
للمطمئن وعقلة المستوفز

وسامحه الله كيف يكون مثل حديثها شركا ، وما هو الا العتق والانطلاق

كان للعرب شغف بهذا اللون من فتون المرأة ، وهو حلاوة حديثها ، فأحبّ الخلفاء والامراء أن يطرفوا مسامعهم بحديث النساء كما طربوا بغنائهن ، وكان اقبالهم على اقتناء الجواري المحدثات اكثر من اقبالهم على القيان الحسان ، فان ثمن الجارية في عصر الرشيد والمأمون كان يقدر بحظها من الشعر والغناء ، وليس على قدر نصيبها من الجمال والدلال . وفي القيان اللاتي ثقفهن اسحق الموصلي

من كانت منية الاسماع والنفوس بحديثها العذب المقال .

وهل ملكت كليوبتره قلب انطونيو الا بسحر حديثها ، فانها كانت تطعنه بجمالها وتداويه بكلامها . وقد بالغ الرواة فظنوا انها أسرت انطونيو بفتونها ، وفاتهم ان انفها الطويل كان يشوه ذلك ذلك الوجه الصبيح . وقد قال فيها أحد علماء الجمال : لو جاء أنف كليوبتره معتدلا لتبدل وجه العالم ... وهو لاشك يريد أن يعترف انها لم تفتن الروماني الجبار بجمالها وحده ، وان هذا الجمال لو كمل لكانت كليوبتره فتنة الدنيا ، ولتطاحن عليها ملوك الارض .

وزاحم الرجال النساء على الخلفاء والامراء ، ففص تاريخ الادب العربي بأخبار الندام دون الندامى ، منذ كان يجلس الى حذيفة الابرش ندماناه ، حتى أعقاب العصور العربية التي كان فيها حفاوة بالمسامرة والمطارحة ، وكم في مطاوي ادبنا من احاديث تنثال عليها الطرافة والحصافة ، في كلام مأثور وعاه التاريخ للرجال ، ولم يحفظ في تضاعيفه الا القليل من محادثات النساء ولعل المرأة لم تكن في حسبان الرجال غنية كل الحواس ، وغاب عنهم أن المرأة مهما كانت فاتنة الخلقة ، سابية الطلعة ، ولكنها لاتحسن الكلام ، فان جمالها الصامت معدود في التماثيل .

وما كان حديث النساء ادباكله او جدا ، ولا سيرة او هزلا ، وانما كانت فيه حكمة وعاطفة ، وكان فيه فقه وتشريع ، فرواة الحديث النبوي قد صدر كثير منهم في مستهل الاسلام عن أحاديث السيدة عائشة زوج الرسول أعظم محدثة في العرب ...

وكان الرواة يعنعنون الحديث صُعدا الى أم المؤمنين التي بذّت المحدثين بدقة وعيها وروايتها . وهذا لعمري منتهى الفضل والمجد الذي بلغته المرأة العربية .

على أن لحديث المرأة في نفس الرجل مهما كانت ثقافته ، شهوة لفكره ورهافة لذوقه وشعوره ، بل هو سلوى له ومؤانسة . فكيف اذا كان الحديث من مثقفة لبقة ، تحسن التحاور والتنادر ، وتتقن المساجلة والمطارحة ، وهذا سر مجالس الادب عند نساء العرب .

فكم غلبت بلاغات النساء في الحديث كل خليفة داهية وعامل جبار ، مثل ما كان من هند بنت عتبة ، وليلى الاخيلية ، واسماء وعائشة بنتي الصديق ، ولكم سحرت عائشة بنت طلحة ، وولادة بنت المستكفي ألباب الكبراء والشعراء ، بسرعة البديهة والذكاء ، وبراعة النقد والادب ، واذا ذكرنا هؤلاء لمعت في الخاطر مجالس حافلة لسكينة بنت الحسين ، كان يسابق اليها اكابر الشعراء الامويين ، طمعا في اصغاء بنت الحسين وعطائها ، فكانت تنقد شعرهم وتجزل لهم العطايا ، فذاع صيتها في الحديث وفصل الخطاب .

لقد غبرت تلك العصور ، وترادفت الأجيال ، فاذا نحن في أيامنا ولم تبطل المقاييس في حلاوة الحديث ، بل صارت به احفى ، اذ جعلته فنا من فنون البيان ، لايؤتاه الا القليل ، وصار لزاما على المرأة المعاصرة أن تأخذ بأسباب هذا الفن ، لتستوفي ثقافتها ، وتكون صورة حية في فطرتها وزينتها ، فان اللوح الفني الذي يمثل المرأة

الجميلة انما هو جمال ساكن ، وما يكون متحركا في الحياة الا اذا أوتيت صاحبته فن الحديث .

وغدا هذا الفن الجميل مجلى من مجالي الثقافة والحضارة في بلاد الغرب ، وقد ازدهر عند الفرنسيين في عصور النهضة والتجديد بمجالس المترفات من المثقفات والاديبات ، أمثال مدام دوسفينيه ودوستال وروكاميه ، اللاتي كن يستقبلن في أبهائهن اعلام الادب والفلسفة ، ويستملن أكابر السياسيين الى مجالسهن ، ليتبادلوا معا الاحاديث والآراء التي كان يتداولها الغربيون في ذلك الحين .

ولم يحرم أدبنا العربي نوادر اولئك الغربيات ، فان نساء عربيات كن في مستهل هذا العصر غرر الأحاديث ، بسداد الرأي وحصافة الفكر وعذوبة الكلام . أذاكرة منهن « ميّا » في مجالسها ايام الثلاثاء تحت سماء الكنانة ؟ ليت الزمان تقدم بي أو تأخر بها ، اذن لأنيت مجلسها لايفوتني كما فات يوما شيخ الشعراء صبري باشا فخلد الأسف عليه بشعره ، ولكنت استمعت فيه لنغمات بيانها ونعمت بحلاوة حديثها ، وان في رجال العرب ادباء مازالوا ، كلما ذكرت « مي » انسابت في مسامعهم احاديثها ، وكأنهم يسمعونها اليوم ، فيتمثلونها وقد عقصت شعرها بعصابة بيضاء ، وأخذت طلائع الشيب تبدو على سواد شعرها كأنها نجوم سواطع في حلك السماء ، ثم صارت تلك النجوم تتناثر وتلمع وبغيب الدجى ، حتى عم البياض الافق ، وغاب ذلك الكوكب الدري .

كان يقبل على مجالس « مي » أئمة الشعر والبيان ، وأعلام الفلسفة

والصحافة، فتدير بينهم مجرى الحديث بوعي شامل لاتصنع فيه ولاتنطّع ثم تدور عليهم بشراب من ماء غير مسكر، مشفقة عليهم، فقد كفاهم نشوة واحدة من سحرها الحلال الذي كانت تسكبه في حديثها العذب الأخاذ.

وطوى الردى «ميا» وانطوت أحاديثها في صدور الذين سمعوها، وكأنها ازاهير أتى عليها الزمن وما تزال ندايا، فليت سامعيها ممن اتصلوا بحياتها وصداقتها ينشرون اليوم شذا تلك الاحاديث

وكان «ميا» كانت استهلالة فنية لطلاوة الحديث النسوي، فراحت من بعدها المحدثات يكملن مواهبهن في العقل والجمال بخلابة اللسان واصطناع مايقتضي الزمان من ثقافة المرأة المعاصرة التي غدت غير قانعة بوعي المعرفة، في حدود انتهت إليها بفطرتها ودراستها بل أخذت سبيلها الى التحدث في المجالس المختلطة وغير المختلطة، وساعدها على تحقيق الأماني من أحاديثها اللطاف وجود الاذاعات، فكانت وسيلة إلى شحذ لسانها واتساع بيانها، حتى عرفت في أيامنا محدثات في مختلف الاذاعات، بمصر وسورية ولبنان، ممن يتحدثن بمثل مايتحدث الرجل أو بما تجلت فيه المواهب النسوية والمزايا الفنية، وزدن على ذلك بمثل هديل الحمام وناغم الكلام

ومن حق الأسماع التي أنست بعذب الالقاء وسحر الأداء، والبيان أن أذكر لها لتهدهدها الذكرى - صديقتي نابغة الأديبات وفخر الجيل النسوي الجديد الدكتورة سهير القلماوي التي طالما حدثت وكان لها الاثر الجميل في أحاديث النساء

• • •

شتان بين فن الحديث ولغو الكلام ، فكل حـــديث كلام ، وليس كل كلام بحديث، انه موهبة كالشعر والموسيقى وقد يؤتاها غير المثقفات ، فكم من أمية يروق حديثها وتهفو الاسماع اليها، وتكون خيرا من نساء تطفو الرطانة على أشداقهن فيخدعن الساذجات بلغوهن وتكلفهن الكلام فيما يجهلن من ضروب المعرفة .

ولقد سئل أحد المحدثين عما دار بينه وبين اناس كلمهم وأطال ، فقال تكلمنا كثيرا ولم نتحدث ، فذكرني بما تتداوله النساء في احاديثهن ، وما يعيّرهن به الرجال.

انهم ليتندرون عليهن ويزعمون ان المرأة لاتتقن من الحديث الا الكلام على الطعام وألوانه، والثياب وازيائها ، والخدم ومشاكلهم والملاهي وسلواها ،فان صح هذا في اكثر نسائنا، فان الرجال،مع سبقهم الى الثقافة وكثرة تمازجهم واتساع آفاق الحيـــاة امامهم ، مانزال احاديثهم اذا جدّوا لاتعدو اللغو في السياسة والاحزاب .

وما يكون فن الحـــديث الا بعد فن السماع وتسديد الموهبة بالمرانة والاطلاع ، فلنسمع كثيرا لنتحدث قليلا ، وليكن كلامنا حين يدعو الكلام ، ولنجعله مطابقا لمقتضى الحـال ، فانه اذا خلا من حكمة او فكاهة او فائدة، فالصمت خير وأولى .

فما أجمل يوما نُعم فيه تعليم البنات، وتتأرج فيهن المواهب تأرج الازاهير ، فيأتي عليهن حين ،يكون منهن محدثات، يجددن عهود

الغوابر في عصورنا الزاهرة . وما فن الحديث الا مرآة لثقافة المرأة وذوقها ، ودليل على وعيها ولباقتها ، ولا يكون سحره حلالا الا اذا اشتمل على الخير والهدى، وأدخل المسرة المشروعة على النفوس فكان جمام الروح ، ومراح العقول من نكد الدنيا وهموم الحياة .

حاجات طيبات

هنالك على السفوح المقدسة من عرفات ومنى ، حيث يتناوح الأخشبان بهامتيهما العاريتين ، وفي عدوة المسعى بين الصفا والمروة تتهادى نساء في الحجيج ، متلفعات بالأبراد البيض ، مؤتزرات بأنقى الجلابيب ، يبتهلن الى الله بوجوه مشرقة بالرضا ، وقلوب فياضة باليقين ، جياشة بالحنين إلى بيته الحرام .

وكما يزم الرجل رحاله ، ويلملم أحماله ، ويطوى البيد أو يمخر البحار ، ويطير في الفضاء ، ليصل إلى ديار بني هاشم وعبد شمس ، بإيمان لايزعزعه زمان ، وآمال ترثها الأجيال من الأجيال ، كذلك تسارع نساؤنا في مواكب الرجال ، إلى دارة الوحي وكعبة الدين لايصدهن عن الحج حرب ولا بعد ، ولا يعوقهن غد غامض مجهول فاذا بلغن مكة المكرمة ، وباشرن فريضة الحج ، بدأن من الشعائر بالاحرام فلبسن كالرجال إزاراً ورداء جديدين ناصعين بالبياض ، ثم والين التلبية ، رافعات بها الأكف ، مبدئات ومعيدات : الله أكبر ، الله أكبر ! لبيك اللهم لبيك ... فيتردد هذا الهتاف ، ويضيع في زمازم الحجيج كلما علون شرفاً ونجادا ، أو هبطن سفحاً ووهادا ، فمن حول البيت العتيق كم طوفت مسلمات فانتات ، مستلمات الحجر الأسود ، ميامنات فيه أشواطاً سبعة مباركة ولكم وفين ثمة بالنذور ، وتشبثن بالأستار الشريفة ، داعيات إلى الله بالرحمة والغفران ، وسلامة الاياب إلى الأوطان ...

كانت زبيدة بنت المنصور زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد تتوق للحج كلما حج الرشيد الذي كان من دأبه أن يغزو عاماً ويحج عاماً ، فلما قتل ابنها الأمين ، واستولى المأمون على الخلافة ، جاءت زبيدة الثكلى حاجة محتسبة عند بيت الله مصابها في ابنها ، فأكبت على المبرات ، وأجرت عيناً تعرف حتى اليوم باسمها ، يجد عندها الحجيج سكناً للهاثهم ، وريّاً لظمائهم ... ومن يدري، فلعل السيدة زبيدة — يرحمها الله — كانت إذا وقفت عند أستار الكعبة تمزج الرحمات بالدمعات ، وتنشد قول الحسن بن هانىء في ابنها الأمين :

طوى الموت مابيني وبين محمد
وليس لما تطوى المنية ناشر
لئن عمرت دور بمن لاأحبه
فقد عمرت فيمن أحبّ المقابر
وكنت عليه أحذر الموت وحده
فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

ثم تنثني إلى الصدقات، فتأمر بامداد المعوزين والمساكين : فتكسو العريان ، وتطعم الجائع ، وتعطي الفقير ... ومن الغريب ألا يسلم عصر من عصور الأدب من مزاحمة الشعراء للنساء ، ولو كن في مناسك الحج ومحاريب العبادة والزهادة : « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ؟ » .. كذلك كانوا يرتقبون أسباب الدعابة والصبابة ، ويتلمسون مراتع الفتون ، فيجيدون داعى القلب ، كما يجيبون داعى الرب . على أن أشهر وأكثر من

تصدى للنساء بالغزل والثناء هو عمر بن أبي ربيعة ، فقد اتخذ من أيام الحج موسماً للهوه ومجانته ، وكثيراً ماوقف عند الحطيم هائم النفس يترقب وينشد :

أيها الرائح المجـــد ابتكارا
قد قضى من تهامة الأوطارا
من يكن قلبه صحيحاً سليما
ففؤادي بالخيف أمسى معارا
ليت ذا الدهر كان حتما علينا
كل يومين حجة واعتمارا

وقد بلغ من عبثه وغزله أن نفرت كل حصان رزان من الحج ، وأبى أحرار الرجال على نسائهم تأدية هذه الفريضة كلما جاء هـذا الشاعر المخزومي إلى تلك المناسك المباركة .

كان عمر يقتحم العقبات ، ولا يحجم عن تعقب الحسان وتتبع الغواني في مغاني الطائف أو بين مسارب العقيق ووادية البهيج ، مهما لقي من تهديد الحلفاء والمتزمتين ، ومن وعيد أصحاب الغيرة على الحرمات ، ولكم هجر مكة أناس فراراً من هذا الشاعر الغزل ، وخشية تشبيبه بكرائمهم وتنويهه بأسمائهن وكشفه عن معالم الجمال فيهن . أما مواكب النبيلات من شريفات الحجاز أو العراق والشام في مواسم الحج فكانت حافلة بالهوادج والرواحل ، مثقلة بالمتاع والزينة

روى أن عائشة بنت طلحة حجت ذات مرة ومعها ستون بغلاً عليها الرحائل والقباب فعرض لها عروة بن الزبير قائلاً :

عائش ياذات البغال الستين

أكل عـام هكذا تحجين ؟

فأرسلت إليه : نعم يا عُرَيّة ! فتقدم إن شئت . فكف عنهـا وندم على فضوله ...

ولم تكن كل النساء في عصر عمر سواء في التنكر للشعراء والتحرج من غزلهم ولهوهم ، فالجميلة منهن كانت تتمنى أن يسير في ذكرها الشعر ، ولا سيما في شعر عمر بما يزيدها تيهاً بحسنهـا ويغرى بها الخطاب . وكان الشاعر العرجى يتصدى في موسم الحج لمن عناهن بقوله :

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة

ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

ولكثير عزة وجميل بثينة والأحوص ووضـاح اليمن أشعار في بعض الحاجات المترفات ،ممن رضين بالأماديح وعدن تياهات بلقيا الشعراء،مباهيات بغزلهم ونسيبهم، حتى أن النواسي على مجونه لحق بجنان جارية الثقفي إلى طريق الحج فقال :

حججت وقلت قد حجت جنان

فيجمعني وإياها المســير

وقد لقي « وضاح اليمن » أشد الويل والعنت من جراء هيامـه بذوات الجمال والدلال، ولحاقه بهن في مواسم الحج إلى البيت الحرام ويحـدثنا التاريخ عما فعل أبو الأسود الدؤلي بعمر بن أبي ربيعة إذ شبب بزوجه واقتفى اثرها في الحج حتى أحرجها فأخرجها عن طورها

وشكته إلى زوجها أبي الأسود الذي شقت عليه فعلة عمر ، فأشقاه بالقصاص

وكانت لتوبة عمر أوبة وخيبة ، إذ عاود التغزل والتشبيب بالمصونات المحصنات ، حتى انه ماكان يتورع عن التعدي لنسوة الولاة والخلفاء ، فقد تجرأ على فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر ابن عبد العزيز ، وعمر اشد الأمويين اعتصاماً بالتقوى والحفاظ على السمعة والشرف ، فعز عليه ان لايذعن عمر بن أبي ربيعة لأمره ، فأمر بنفيه وتشريده

وفي الواقع ان نساءنا في الحجاز كن في القديم يؤدين هذه الفريضة بشوق وحماسة وحافز ديني عميق ، وهنالك كن يشهدن في ذلك الموسم العظيم مباهج الاسلام وعزة الدين وفضل المساواة وكانت الحاجة تعود الى بلادها سعيدة فرحانة ، مزهوة بما نالت من شرف الحظوة بالأرض المطهرة التي فيها اول بيت وضع للناس والتي ضمت قبر الرسول عليه السلام وصحبه الأكرمين وأطلعت آفاقها المنورة كواكب رجال تسلموا مفاتيح الدنيا وملكوا زمامها وعلموا الناس الحرية والعدالة والمروءة

أما نساء اليوم من نظائر المترفات بالأمس وفضليانهن السريّات فقلما يدور الحج في خواطرهن وهن مستطيعات إليه سبيلاً ، إذ ان تيار الحضارة قد جرفهن بريحه العاتية نحو الغرب فسجن في بلاده ، وزرن عواصمه الكبرى للمعرفة والسلوى وكان إليها حجهن المنشود

على أني لاأغمط الحقيقة في هذا الصدد ، فان المصريات الحديثات

على أخذهن بأسباب الحضارة المعاصرة ، والثقافة الجديدة لايتخلفن عن شد الرحال إلى الديار المقدسة ، ولعل حجهن يكون أغلى امانيهن في العمر ، فقد شهدت من إقبالهن وتلهفهن على هذه الزورة المباركة مالم أر مثله عند غيرهن من الشرقيات ، حتى شاقني الحج مع نخبة منهن لولا اغتراب على اغتراب ، ومبارحة الدار دون أطفالي الصغار وما كان أجمل عندي ان اسرح الطرف في تلك الجلابيب البيض من الحرير ، التي كان تتلفف بها النسوة المصريات الحاجات من صبايا ومسنات ، متعلمات وغير متعلمات ، إنهن ليذهبن إلى الحج بهذا الرداء الناصع الأنيق ويعدن من دارة الوحي الى مصر يبقين بهذه الثياب عاماً او بعض عام ، يخفقن بها معصوبات الرؤوس بالخمار الابيض ، وما تقع العين على واحدة منهن وهي بين ذوات الملاءات السود حتى تطيف بها وتهتف وحينئذٍ تردد الأفواه : هذه حجية ... ربنا مايحرمناش ...

ولعل أسعد مصرية في ايامنا من الحاجات المثقفات تلك السيدة الجليلة التي نماها الأدب والتقوى ، فأنجبت خير البنين والبنات (١) وأسهمت في بناء النهضة النسوية على ضفاف النيل في مجلتها التي كانت باكورة الآثار الفكرية في حداثة النهضة المصرية

تلك هي الحاجة الاديبة السيدة « لبيبة أحمد » التي آثرت جوار الكعبة ودار الوحي ، فأقامت هنالك منذ ربع قرن ولا تزال إلى

---

[١] منهم صديقتي الفنية العظيمة السيدة زينب عبده عميدة المعهد العالي للفنون الجميلة وزوجة الفنى العظيم الاستاذ أحمد أحمد يوسف عميد الفنون التطبيقية بالقاهرة

اليوم مجاورة موّفرة ، يعاودها الحنين الى مصر حيناً بعد حين فتطير اليها على شوق ووفاء ، ثم ترتد الى اكناف البيت العتيق

وفي غير مصر من بلاد العرب لايشوق الحج الصبايا والفتيات ، من مثقفات وغنيات ، توهماً منهن بأن الحج يخلع عليهن الوقار وطول الأعمار ، فلا يقبلن عليه إلا بعد أن ينضحن من مباهج الحياة ويجعلن هذا الحج خاتمة المطاف

فيامهبط الوحي ويادارة النبوة والهجرة ، إليك تهفو روحي هفهافة كالأجنحة ، خالصة صافية كماء النبع ، مبتهلة إلى الله ان اراني في يوم قريب ، طوافة في البيت الحرام حوّامة على ذلك الصعيد الذي درجت في حماه خديجة الكبرى وفاطمة الزهراء وعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت ابى بكر وسكينة بنت الحسين وغيرهن من القانتات الطيبات

وياحجيج هذا العام من مترامي بقاع الاسلام ، يامن طويتم المراحل في غمرة هذه الحرب الضروس إلى بيت الله ومثوى الرسول سلو ربكم ان يرفع غضبه عن بني الانسان ويحقن الدماء التي يسفكها اعداء السلام والوئام ، ليقيموا على جماجم الضحايا والأبرياء ، مجداً لجشعهم وطغيانهم ، مصبوغاً بالدماء

أدب النسوة

كما أعطي الرجل نعمة الفكر كذلك أعطيت المرأة ، ولئن كان «ديكارت» يقول : انا افكر إذن فأنا موجود ، فمن حق النسوة في هذا الوجود ان يقلن هذا المقال ، حين يفكرن ، وحين يردن ان يعربن عن تفكيرهن ، وان يبتغين الوسيلة إلى ذلك

ولقد احست المرأة بما يحيط بها من دواعي التفكير وإثارة الشعور ، منذ عرفت السبيل إلى التعبير عنها ، حتى اخذت تلوح في آفاق الدنيا تباشير ادبها ، على انها وهي في غثاثة الفكر وضآلة المعرفة في بداوة الامم وجهالتها ، كانت وهي تهز المهد تنشد الاهازيج وترددها فيها الحنان على الوليد والحنين اليه ، وفيها الدعاء له والامل المعقود عليه . وكانت العجائز في هذه الفترات الساذجات يتجاذبن على هامش الاحداث والانباء جوامع الكلم وامثالاً يرتجلها ذكاؤهن ارتجالا ، او يروينها ويتبادلنها ، فيها الموعظة البالغة والعبرة القاسية والشهاتة الهازئة . ولما تقلبت الامم في ادوار الحرية والمعرفة واطوار الحضارة والثقافة ، كان ادب النساء في تطور وتجدد ، فجارين الرجال في التعبير عن مشاعرهن وتصوير خواطرهن . أفما كانت سافو شاعرة الاغريق ضريعة لشعراء عصرها ، ان لم تكن ثالثة ثلاثة بين شعراء الغناء عند اليونان ؟ ولولا نزق لعب بعقلها لما ارتمت على البحر من شاهق ، ولكانت وحدها درة الادب النسائي القديم .

وتعاقبت على ادب النساء عصور متفاوتة الالوان والوجهات حتى اوفت امم الغرب على ذروة البعث والمدنية ، وانبسطت لها آفاق

العلوم والفنون، فكانت نساء الفرنسيين اكثر نساء الغرب استمتاعاً بمباهج الحياة وثمرات القريحة والروح ، فاستوفت طائفة منهن حظوظهن من الذوق ، والظرف ، والادب ، وأقمن في بيوتهن الرفيعة مثابة لأهل الفكر وملتقى لرجال السياسة والكياسة فكن ينشرن آثارهن في الصحف ، ويقرأن مايكتبن على من يختلف الى مجالسهن الزاهرة حتى كثر عدد الملمات بالادب ، والمنتميات الى اهله اما اللواتي كان لهن من الفطرة الملهمة ، والثقافة المكتسبة ماجعل منهن كاتبات ومفكرات فهن فلائل ، يذكرهن تاريخ النهضة الاوربية الحديثة بزهو واعجاب ، وفي حقبة ادبهن النضير لمعت السيدة دي سفينية المشهورة بادب الرسائل ، والتي كان بهواها موئلاً لاهل الفنون ، ونشأت السيدة دوستال فألفت كتابها « كورين » ونبغت جورج صاند فأنشأت الكتب الطريفة ، منها أثرها المسمى « هو وهي » كشفت به عن زهرات ادب حي لاتجنيه الا المرأة لانها اعربت فيه عن نفسها ، وعما وقع في نطاق حدسها وسياق حسها.. ولسوف يبقى على الزمان ذكرها مقروناً بالمياسم النسائية الصحيحة ولقد استولت بعدها على أمد الادب النسوي الشاعرة الكونتيس دونوايل التي كانت تمثل الالهام بشعرها ، وترسل قصيدها كما ترسل العناديل اغاريدها ، وما تزال السيدة كوليت اديبة العهد الفرنسي الحديث .

وفي عرب الجاهلية والاسلام بدرت بوادر ادب نسائي جميل ، اخذت سلائقه وبديهته تلح في الظهور في غير تكلف ولا غرور ،

حتى انبثق ادب مرموق ، ولكنه لم يكن متسع الحدود مترامي الاطراف ،او على شاكلة الادب الذي ابتدعته نساء الغرب ايام الترف والتجديد ، والاستقرار . وكيف اتفق الامر فأدب نساء العرب اكثر مايتجلى في الشعر الذي كن يطارحنه الشعراء والنقاد في الاغاني والاسمار ،والذي كان يتفجر من قلوبهن المحترقة في المآسي والرثاء ، ولا أدل على ازدهاره من نقدات بنت الحسين في عز الحضارة الاموية ، وولادة بنت المستكفي في عهود الاندلس المشرقة

اما ادبهن العربي الحديث ، الموسوم بخصائص الانوثة وعبقريتها النضّاح بثقافته وسماته ، فقد ظهر نباته مع باحثة البادية على ضفاف النيل ، وأمرع وأزهر ، في ادب الآنسة مي يرحمها الله ، بيد انه لاينبغي ان نقارن ادب هاتين النابغتين بادب من سبقهن من كاتبات العرب في العصر الغابر على قربه منها . فوردة اليازجي اللبنانية ، وزينب فواز العاملية ، وعائشة تيمور المصرية ، كان ادبهن في قيود الزمان ، وحدود المكان ، وتكاد تنحصر آثارهن النثرية ، والشعرية في الرثاء ، والاماديح والمواعظ الاخلاقية . ولكن ليت شعري ماهو الادب النسائي المنشود ؟ هل هو ان تكون المرأة مثقفة كالرجل المثقف ؟ فاذا خلقت واعية ذكية او تمرست بالصحافة كانت ذات ادب نسائي ؟ او ان كثرة المتعلمات والمعلمات ،والمثقفات ، والمحدّثات تكوّن الأدب الذي اريد ؟ كلا ، ليس هذا مابتغي .. وانما ادب النساء هو في تلك المقولات الشعرية ، والرسالات النثرية ، والالواح الفنية ، التي تعبر فيها المرأة الكاتبة عن دخائل نفسها وخفايا احشائها ،

في البيئات النسائية ، التي لا يتسنى للكاتبين ان يعيشوا فيها ، او يشعروا بها وبعاينوها . هو في المواهب النسوية المصقولة والأفكار المتحررة من أصفاد أحكمت وثاقها التقاليد ، ففكت بقوة النفوس العلوية الطيبة لتطل على مجتمع النساء المحروم ، فتمده بالضياء والرجاء ، وتوقظ فيه الارواح النائمة ، او الخانعة المستسلمة ، إلى ظلمات اليأس والجهل والشقاء

هو في تصوير الحياة النسائية المبهمة ، العادات المحجوبة عن الرجال . فاي كاتب مهما بلغ وعيه واستفاض وحيه يستطيع ان يحيط باسرار النساء وهي عندهن في آبار عميقة وتحت حجب صفيقة ؟ فكثير من احاديثهن لا يفضين به الى الرجال ولا يقدر ان يستله منهن الا الكاتبة . فسر السحر والتعاويذ وضروب الكيد بينهن والحسد وستر المنكر وتزوير الجمال وتصوير الأمومة ، كل هذا في عالم النساء ، لا يقيض للكاتب ان يجول فيه . اما الكاتبة فلها فيه جولات مجليات ، فلو سئل اديب منا ان يكشف الغطاء عن صور من اعراسنا الغابرة والمعاصرة أكان يبدع في صنعه كما تبدع الاديبة ؟ فقد تخطئه الطرائق والوسيلة ولا يتيسر له التدسس الى بواطن النساء . ولو تصدى قاص من هذه الديار فأنشأ قصة سماها « حمام النساء » أكان يستطيع ان يصف الحمامات الشامية ذوات المقاصير ، والأجران المقسمة الى « جوّاني » « وبرّاني » والمصاطب التي تصطف عليها النساء ومعهن الصرر المزركشة ، وبأرجلهن القباقيب العالية او الواطية ، كل منهن تمسك بولدها او تنادي جارتها وقريبتها ، وثمة معلمة الحمام على اريكة ناشزة ، تقيس الداخلات بالنظر ، وتستقبلهن بالترحاب ، وتجبي الاجور من الخارجات

وتشيعهن بالتحيات . لاجرم ان هـذا القصصي الذي يتوسل بادبه الى تصوير ناحية من حيـاة المرأة ظاهرة او باطنة ، انما يستوحيها ويستمد لفنه افانين التعبير عنها، من ذكريات له بعيدة، حين كانت امه تأخذه الى الحمام معها بعد الظهيرة، او انه يتصور مجالي الحمام مستعيناً بنفاذ بصيرته وامتداد خياله على اجتلاء ناحيـة لايعرفها ، والخيـال وحـده في الادب لايكفي لانه يشرد احيـاناً ويجمح ، فيجني على الحقيقة وعلى العيان، ويشذ عن دنيا الواقع وشرائط الفن . على انه لم يخل ادب كاتب شرقي او غربي من ذكر النساء ، ومنذا الاديب الذي خلا ادبه من تشريح المرأة او تجريحها، او التلميح إليها ؟ وكل ادب تجافي عن مناهلها هو ادب جاف بغيض، ولو عرضنا على النقد والفكر ماجرت به اقلام الادباء ، بما كان على الاديبات ان يتناولنه باقلامهن ، لرأينا فيهم من حاد عن حق، وجار على قصد ، وسخر منهن كيـداً وحقداً . غير ان بيئات النساء عنـدنا على الرغم من انسلال الحضـارة اليها ماتزال مكتمة الانفاس ، مهيضة الجنـاح لاتستطيع الكاتبة فيها — اذا وجدت — ان تعلن مشاعرها الصـادقه على ضوء الحرية التي يكتب الرجال في امنها ونِعْمتها ، ولذلك كان الكاتبون في ادبهن يخوضون ، وبساحته يسرحون ويمرحون ، وهذا مااخـذه منذ سنين على المعـلم الاكبر طه حسين تلميذه الالمعي زكي مبارك فقد عاب هـذا الناقد على عميد الأدب العربي أن يكتب قصتيه الحديثتين « دعاء الكروان » و « الحب الضائع » على لسان امرأتين، وكان على طه حسين حسبما زعم زكي مبارك ان يكتب عن الرجـال

لا عن النساء، وقد فاته ان الاديبة العربية الحديثة مهما بلغت بلاغتها ومهما اوتاها الفن والبيان، فلن تفوق طه حسين في قوة الاحياء والابداع، فهو جدير حقاً بأن يكتب باسمها، وقدير على ان يصور نفسها بما تحجم هي عنه، او بما لا يتاح لها التفوق فيه، والمرأة العربية قريرة العين طيبة النفس على كرّ الزمان، بهذا الادب الناضر الساحر الذي ينطق بلسانها فيه صاحب « الايام »

من هذا الباب استطاع ناقد ان يدخل على ادبي حين احرزت جائزة القصة في المسابقة الاولى التي اقامتها منذ سنوات جريدة « المكشوف البيروتية »، وكان موضوع قصتي عن رجلين كاد يضل احدهما فأرشده الثاني، فأبى عليّ الناقد ان اخوض ناحية خافية في ادب الرجل ولم ير رأيه نقادة آخر اذ قال لي مشجعاً ومؤيداً :-
انت اعلم بنا من علمنا بانفسنا ...

ثم اعرضت بعدئذ عن اشباه ذلك الموضوع، وحبست قلمي عما يبدع فيه الكتاب، فمددت عيني الى مايعج في حياتنا النسائية الراهنة من هموم وعيوب، مرسلة ادبي على سجيته في كتابة الاقاصيص التي تختص بادب المرأة، وتشتمل على ادق طواياها.

ولا ريب في ان ندرة الادب النسوي الصرف مردها عندنا إلى قلة الكاتبات الموهوبات، فلو ان بيئاتنا المتنورة منبسطة الآفاق، وضاحة المعالم، قوية الاقلام، لقلنا بان يختص كل من الجنسين في أدبه وان يقتصر عليه وحده. اما وادب المرأة المعاصر مايزال مضطرب الملامح، قليل المحصول والمنتوج، ضئيل الالوان والالحان، فلا تثريب على ادباء الرجال اذا تناولوا بعضه

بالوصف والنقد والتصوير ، فاذا قوي هذا الادب بطول المراسة والمراس، وخلينا بينه وبين حرية مهذبة الاعطاف، مأمونة العاقبة ، وضحت فيه امور كانت خافية، وصقلت به اذواق كانت نابية ، وتسامت من اجله نفوس نحو المثل العليا . واحسب ان الدنيا متى هدأت واستقرت، ستنتهي المرأة في بلاد العرب الى ادب خاص جزيل يستقل بفنه وحصاده ،ويتزيا بازيائه الصحيحة ، فيزدهر بجدته وانوثته ويسهم في آداب الرجال بتبليغ رسالة الخير والجمال .

ومهما تجنى عليه المكابرون بعد ئذ فلا بد من رجعة لهم الى الحق، فيقولوا اذا قرأوه ماقال الفرزدق حين سمع شعر المخزومي عمر بن ابي ربيعة : « هذا والله الذي كنا ندور عليه فأخطأناه واصابته هذه المرأة ... »

سحر المرأة

السحر سلاح انفذ من السهام وامضى من الحسام ،انه اختراع الله ، أبدعه من روحه ونفخه في المرأة الاولى ، فتوارثه عنها بناتها .

رف على العيون فكان محبة وهياماً ، وطوف في القلوب فخفقت حناناً ووئاماً . طلعت ازاهيره في شقرة الشعر وسواده وسمرة الوجوه وبياضها ، وتدلت ثمراته في مجاني النساء فكانت وداعة الدمائة وعذوبة الانوثة ، لم يسكبه الله على كل امرأة ولا آتاه بنات حواء من غير حساب، فمن مسح به الباري على وجهها فهي المحظوظة السعيدة والمرموقة المحسودة ، انه لايرى بالعينين ولا يمسك باليدين ، هو كالكهرباء يرى أثرها ولا يعرف سرها. ضل من طلبه في اتساع العيون الفواتر وصفحات الخدود السواجي وعلى المباسم الجاذبة ، وجار على الصواب من حكم فيه بالمقياس أو أقره بالبرهان. انه خفي لاتدركه الا الارواح الشفافة والانفس الحساسة.

رب راء لامرأة يعرفها او يصادفها ، وكأنها قد صبت في القالب او نحتت مثل دمية او تمثال ، لكن تنقصها الروح والحياة ، ولو جالت في عروقها الدماء لما سكبت عليها من السحر قطرة ، ولقد يكون السحر ساكناً كما نراه في الصورة الفاتنة . وكأي من صورة يخيل اليك ان السحر يترقرق في خطوطها وملامحها ، فلما نطقت وتحركت ، عريت من الصناعة ، فاذا هي بموهة مزورة كالدينار الزائف . ولقد يكمن هذا السحر في المرأة كمونه بين الزند والحجر، فلا يتراءى حتى يقدحه قادح

كذلك شأن المرأة من الغيد الملاح لا من الجميلات الحسان ، تقع العيون عليها وهي صامتة ساكنة ، فتحسبها جامدة هامدة مالها في السحر من نصيب، فاذا هي تحور وتمور، وتتدفق الحياة في قسماتها ونظراتها بالسحر المبين ، وهذا مايسميه الناس جاذبا .

هذا الجاذب الخالب هو الذي يلعب بالالباب ويعبث بالقلوب، واحسبه كقاعدة في العلوم الطبيعية ، عندما يجري تيار الكهرباء ، في الفولاذ يكون المغناطيس ، هكذا يكون الجذب في المليحات الفاتنات حين يدب فيهن تيار الحياة ، وانه كشأن الغناء والرنم حين ترجعه المغنيات في اصواتهن الندية الرخيمة ، فيكن من المثيرات الساحرات .

ماأحيلى السحر حين تصرفه صاحباته في سبيل الحق والخير والجمال فيكن فيه كالملائكة ! وما اقبحه عندما يتوسلن به الى الشر والشقاء والاذى فيكن فيه كالشياطين ! ويل لكل ساحرة جائرة، ان لصنعها الخبيث وقعاً اشد من الوقيعة وافدح اصابة من المصيبة ، ان السحر الرهيب يجرف كريح السموم ، هو مس الافاعي وطعم العسل المسموم . بكلمات من هذا السحر الاخاذ قالت حواء لآدم : كل من هذه الثمرة ... وكانت محرمة عليها فهويا الى الارض ، وافسدا الخلود الاول على بني الانسان فارتموا فوق التراب مكبين على الوجوه يسعى ناس منهم للخلود الآخر في جنات النعيم ، وناس يسحبون سحباً لتكوى جباههم على نار الجحيم

كذلك فعلت بسمات سحر من حواء في الاغراء ، فجرّت على

الدنيا البلاء والشقاء .. وها هنا تنفتح امامى ابواب التاريخ فألج في بيوته واجول في حجراته ، فأرى لسحر النساء سجلاً منشوراً وكان مطويا دفيناً ، واذا بالاحداث الجسام تخرج من هذه البيوت وتطل من تلك الاسفار، فترتدي الاعمار وتكشف الستار وتهب بين عيني جاثمات قائمات ، فارى فيها كليوباطرا قد اهلكت انطونيو بهذا السحر العميق ، وجوديت تتسلل بهذا السلاح نحو هولوفيرن فتدخل عليه الخيمة ، وهو في حصار بيت المقدس ، فتغربه ثم بالمدية تقربه ، وبومبادور قد اخذت المطرقة واشعلت الكير فهي تصنع المقصلة قبل ان يخترعها السفاح « غيوتين » وماري انطوانيت تأخذ الشفار فتشحذها لتمضي فى جذ الرؤوس وضرب الاعناق ، ولويس السادس عشر يبتسم ضاحكاً امام تلألؤ ناظريها وتثني قدها الميساد بالسحر النفاذ ، ثم ارنو الى صحائفنا وامجادنا فاراها حافلة بسحر بنات حواء ، وتخطر في خيالي ملاحة زبيدة وحلاوتها فأتمثلها بارعة متفتنة ، نفاثة سحر انوثتها في وجه الرشيد، ليجعل الخلافة بعده لابنها الامين، واذا بجيش المأمون يدك بالفارسيين بعد حين صروح العباسيين ، ويسفك الاخ دم اخيه ، فتروعني هذه الرؤى الحمراء واستعيذ بالله من كيد الساحرات .

ولقد تفقد المرأة سحر الخالق فتعمد الى سحر المخلوق ، تغلو في الزينة والتبرج، لعلها تملك السلاح الذي به تلهو وتعبث، وتحكم وتسيطر فلا يجديها الحسن المجلوب نفعاً ، أما قال لها الشاعر : ليس التكحل في العينين كالكحل ؟ ...

وثمة سحر آخر يعلو في جوه الدخان ويعبق البخور ، وقد جلس في الزاوية رجل قد يكون عبداً زنجياً أو زميتاً رثياً ، وربما بسط على طرف الطريق منديلاً عليه الرمل الأحمر ، فرسم بأصابه فوق النجوم المسدسة ، وأخذ من جعبته قلما من قصب، فغمسه بالزعفران وجعل يكتب أسماء حنطوئيل وجرموئيل وأنطش وأرقش ... ثم صور شباكاً وحشاها حروفاً، وجعلها ورقة مستطيلة كالزنار ،فطواها واحكم بقماش من الشمع غطاها ، ثم أداها إلى اللهيفة أو السخيفة مشترية السحر بثمن غير بخس من وفرها أو تقتيرها ، وقد تكون أخذته من الزوج غصبا وحرمته العيال،فتعود إلى بيتها تحمل التعاويذ والتهاويل ، أو تحل الورق المكتوب في الماء المشروب ، وبعض السحر يقضي على شاربته بأن تحرق على النار العود والحصلبان، لترد الزوج البعيد أو الولد الشريد ، وقد تفعل ذلك لطلاق الضرة أو الكنة ، أو لصفاء العشرة والجيرة، إنه سحر عتيق في الدهر ، عرفته بنات جنسي من عهود بابل، يوم كان فيها هاروت وماروت، وعايّنه في قصر فرعون حين همّ الكهان بموسى عليه السلام ، عاش مع المصريات ، فهو إلى اليوم عند طائفة منهن يسمى « الزار » (١) وله لديهن مواقيت وأخطار،تجري بها الأخبار، وتعلق به فريق من نساء الطبقة الدنيا حتى صار فيهن المنجمات والناظرات في الفلك، وفي المندل ، والحاسبات القارئات في الكف وفي فنجان القهوة ، والساكبات الرصاص «والمحليات» برش الماء على مواضع الداء،وفيهن

«١» للزار قصة في كتابي « بين النيل والنخيل »

التي تزعم أن الجني يتلبس إهابها فينتبج منها الوجدان، وتحمر العينان ويرغو الزبد على الشدقين، وإذا بصوتها الناعم يخشوشن ويتهدج وتلفظ الكلام بصوت أجش، كأنه متدفق من افواه الرجال، ثم تخاطب الملك الأحمر أو الاصفر، وتتقبل النذور والأجور بالخداع والتدليس

• • •

هذا سحر بنات حواء : روح وريحان وبهجة وجمال ، أو فتون وجه ورشاقة قد ، وحلاوة لسان ولباقة ذوق ، وصفاء شعور وهو السحر الحلال، أو بخور وتمائم ونفثات وطلاسم ، للكيد والحسد، وهو السحر الحرام، سحر مطبوع وسحر مصنوع ، هما قوام عرش المرأة في مملكة الحب والجمال ...

قفل بغير مفتاح

منذ القديم والمرأة في الشرق والغرب متهمة باشاعة الأخبار، موصومة بفضح الأسرار، وهذه التهمة الغاشمة قد وصمها بها رجل ... هذا الانسان القوي العاتي، الذي مايزال يتجنى على النساء ليثأر منهن وينال، فصرن لدى سواد الرجال بعد تلك الوصمة لايصلحن للسر كائنات، ولا للغيب حافظات، ولو تتبعنا صحف التاريخ لازدحمت أمامنا الأحداث الجسام، وأطلت منها الاسباب والبغتات، فرأينا فيها المرأة أكتم للسر، وأعلم بمواضعه وأقدر على إخفائه

قال الرجال الذين كتبوا عن «ماتا هاري» إنها مثلت بين أيدي القضاة العسكريين بفرنسه إبان الحرب العالمية الاولى - بنفس صامدة كأنها قلعة الجبل، فلم يستطع واحد من دهاة التحقيق يومذاك أن يستل منها سراً من الاسرار التي دفنت معها، ولو هي باحت بمكنون الضمير، لوفرت على الاعداء كثيراً من مصايد الدمار، ولأغنتهم عن حصون أعدوها لسفك الدماء

وفي الحرب العالمية الثانية نجمت نسوة وفتيات، غربيات وشرقيات، كانت كل واحدة منهن ابرع من «ماتا هاري» في التسلل إلى مطاوي الاخبار والاسرار، ورب كلمة تحصل عليها من جندي سكير أو ضابط مندله أو قائد هيمان، فتغير وجه المعارك الحربية، ولولا حرص الدول التي كسبت الحرب على إبقاء تلك الدفائن في قيودها الابدية، لذاع في أيامنا صيت طائفة من النساء ممن غيبهن الكتمان أو طواهن الزمان

وكانت المرأة من قبل هؤلاء ذات حفاظ على السر في الملمات والخطوب ، ألم تحفظ «جوديت» سر قومها وتقتل به «هولوفيرن» في ليلة من ليالي الحصار في بيت المقدس ؟

وما بالي أذهب بعيداً ، ولدينا في تاريخ المآثر النسوية صفحة غراء لاسماء بنت أبي بكر ، فقد أعجل الرسول عليه السلام وصاحبه الصديق عن ابتغاء الزاد في طريقها مهاجرين الى يثرب ، فسارعا الى غار في جبل ثور إخفاء لأمرهما ، وتضليلاً لمن يقفي على أثرهما ، لكي يصدها عن الهجرة الى المدينة المنورة ، فكانت أسماء بنت أبي بكر توافيهما تحت جنح الليل بالزاد والماء ، وبما استشفت واستطلعت من أحاديث الاعداء المتربصين ، ونيات المتآمرين على رسول الله وصديقه الصديق ولقد أحاط بها فريق من هؤلاء ذات يوم إذ شبه عليهم أمرها ، فسألوها عن أبيها ، وألحوا بالاستفهام والسؤال ، فتجاهلت خبره وكتمت سره ، ثم عنفوها مهددين متوعدين ، وهي معتصمة بالكتمان حتى لطمها «ابو جهل» لطمة أليمة طار منها قرطها فما دمعت ولا فزعت ، وإنما استمدت من الايمان صبراً على هذا الهوان ، وكانت حاملاً متماً ، فصامدت صمد الجبابرة المذاويد ، في وجوه المعتدين والمترصدين حفاظاً على سر محمد ...

حين تسأل القلوب أين مكامن الاسرار وآبار الكتمان ، تردد الجواب أفئدة النساء المؤمنات الأمينات : هاهنا في صدورنا الحصينة الرصينة ...

ففي نوازع الاهواء ، كم ذا لقيت الشقاء قلوب بنات حواء ، إذ آثرن

الكتمان ولو في غير أمان ، ولولا العواذل والكاشحون لاستسرت في ثنايا هاتيك الخوافق اخبار وسير ، ولحفظت عهود وذمم ، ولو أحصينا في الناس من أخاف الوعود ونقض العهود وفضح السرائر ومستور الضمائر ، لوجدنا الرجال اكثر عدداً وأبعد اشواطاً من النساء في هـذا المضمار ، على ان المرأة لم تسلم في اي عصر من العصور من رجـال تهكموا بهـا واصطنعوها للهمز واللمز في كل نكتة ونهزة ، وقد زعموا ان ألذ الاشياء عند النساء كشف الخفايا ثم اذاعة مافيها من اسرار واخبار ، وتزيدوا في تهكمهم هـذا فقالوا ان المرأة لاتكتم امراً ولا تحفظ سراً الا اذا كان لهذا السر مساس بعمرها ... وقد كان لافونتين صاحب الحكايات الحيوانية ممن عيروا المرأة بفضح الاسرار ، فركب في شعره أسطورة عنها ، تصور فيها امرأة فضحت زوجها حين زعم بأنه ولد بيضة ، فقد نسج خياله سيرة رجل كان يباهي بحفاظ زوجته على الاسرار فقال له صاحبه : ان شئت لها ابتلاء وامتحانا فمثلك من يبتليها بهذا السر : أظهر الليلة ماتظهره المرأة وقد جاءها المخاض ثم قل لزوجتك بعد قليل لقد ولدت بيضة ... واطلب منها ان تكتم هذه الحادثة وانظر بعد فعلتها ، فقام الرجـل بما وصى به صديقه ، اما المرأة فقد ضاق صدرها بهذا الخبر فلم تستطع ان تطويه في اعماقها ، بل حملته الى الجيران ، وسرعان ماشاع في كل مكان ، وهكذا بلغ الرجل في المساء انه ولد مائة بيضة .. وهذه الأسطورة التي وضعها لافونتين شاء فيها التهكم بالمرأة والسخرية منهـا ، وهو الساطي بفنه القصصي على أديبنا ابن المقفع الذي كان يغلو في نصح

الرجل بكتمان الاسرار حتى أدار حواراً بين اربعة ملوك، في موضوع السر فقال ملك الصين : - أنا على مالم أقل أقدر مني على رد مافلت.

وقال ملك الهند : - عجبت لمن يتكلم بالكلمة ، فان كانت له لم تنفعه ، وان كانت عليه أوبقته .

وقال ملك فارس : - انا اذا تكلمت بالكلمة ملكتني، واذا لم اتكلم بها ملكتها .

وقال ملك الروم : - ماندمت على مالم اتكلم به قط ، ولقد ندمت على ماتكلمت به كثيراً .

لقد أجرى ابن المقفع على لسان ام الاسد مثل هـذه المواعـظ بقولها : انني لم اجهـل قول العلماء في تعظيم العقوبة وتشديدها، وما يدخل على الرجل من العار في اذاعته الاسرار ... فكان ذكر الرجل في هذا التحذير والموعظة مدعاة لاتهامه هو - كما تتهم المرأة - بكشف الستار عن خطير الاسرار . فكم سر افضى به الرجـل و كانت المرأة قد غيبته في مطاوي الخفـاء ، ابقاء على سمعة أو سعادة ! أليس في الرجال اصحاب سفارة ووزارة ، او وظيفة وحرفة ، قد حلفوهم الايمان في سبيل الكتمان، وما لبثوا ان كشفوا الاسرار الخطيرة عن خبايا صدورهم واغوار ضمائرهم طوعاً او كرهاً، وكانوا لغيرهم سبب شقاء وعذاب .

ولقد بلا الكبراء والرؤساء في ايامنا وفي ماغبر من الزمان، مزايا بعض النساء في الحفاظ والكتمان، فاتخذوا منهن دون الرجال عيوناً

وآذانا ، وجعلوا من بعضهن للسر أمينات ، وللمهمات حصينات ، فأفحموا المتندرين وأسكتوا المستهزئين ، ولو لم يستيقنوا من امانة المرأة وكفايتها ، لما وكلوا اليها في ايام الحروب اخطر الانباء والرسوم تؤديها كعفريت من الجن ، ولكم دهمتها من جرائها النكبات والاهوال فتقبلتها بالصبر والرضى والحصافة ، وكم تقاذفتها ايدي النوى وانتزعتها من بين اهلها ، وترامت بها المفازات والأمصار والأفلاك والبحار ، مستعينة على قضاء الحاجات بالكتمان ، وكأن لسان حالها ينشد مع المتنبي :

وللسر عندي موضع لايناله ... نديم ولا يفضي اليه شراب

فذكرني هذا البيت رجالا لايأتي عليهم العد ، كانت أسرار الناس واخبارهم ساكنة كامنة في أعماق نفوسهم ، فلما رشفوا كؤوس الخمرة ودارت بهم نشوة الصبابة وعبث الدعابة ، فضحوا الاسرار المستورة وباحوا بها رخيصة هينة ، وكانوا هم الظالمين .

لقد افتروا على المرأة فزعموا انها لاتصلح للسر موضعاً ، ولا للخبر كاتماً ، ولست بزاعمة مثلهم او مدعية في مقالي هذا ان كل النساء سواء ، ففيهن الطياشة المهذارة التي لاتطيق السكوت عن كل مايخطر في بالها او يضطرب في بيتها او يقع في سمعها فكيف بأخبار غيرها ؟ كما ان في الرجال النفاجين الذين لايكتتمون مرة بل يباهون بكل صغيرة وكبيرة ، لاتطمئن جنوبهم ولا تقر لهم قرارة على سر حتى يبيحوه طائعين راضين ، فاذا هم أخف احلاماً من العصافير ، ومن عجب ان يرى الرجل المرأة مبيحة الاخبار ، هاتكة الاستار ، وينسى ان

الله اختصها بسحر فيه مفاتح الاسرار - وهو الذي القى سلاحه منذ الازل دون سرها الموصد وبابه المرصود ،حتى قال اساطين الحكمة من الرجال هذا القول المأثور «المرأة سر مغلق» وبحسبي ان اجيب عن الكتامة الرزان من بنات جنسي، بقول الشاعر :

والسر عنـدي في بيت له غَلَقُ

قد ضاع مفتاحه والقفل موجود

وأد البنات

لحا الله زماناً كانوا يقولون فيه : وأد البنات من المكرمات ، لكأني أتخيل أيامه البائدة فأرى على جهامتها في جاهلية جهلاء، امرأة فاجأها المخاض تحت خباء بعيد في ليلة ذات هرير ، فلما وضعت حملها اشتد بكاؤها، لا من مواجع الطلق الأليم، وإنما من هول الوأد الفظيع إذ كان حملها أنثى وليس الذكر كالانثى عندهم في ذلك الحين ،فأخذتها بين يديها بلهفة وخشية ، وضمتها إلى صدرها بحسرة وقالت لها : أبد الدهر ، لن توءدي أو أقتل معك يابنية ...

وأقبلت العشية على والدة مطوية على كبد حرى ، وقلب تتفطر له السماء ، ووالد مسود الوجه كظيم ، بين يديه وليدة ساخنة اللحم باكية ، وقد توارى بالظلام وفزع إلى حفرة قذف بفلذة من كبده في جوفها ، ودسها في ترابها ،ثم نفض يديه منها، ونهض مستريحاً من تعيير مر ،ووهم فادح، وما هو إلا في الخيال المختل، والعقل المدخول والقلب الغليظ . ولم يكن هذا الوأد الفظيع مقصوراً على طوائف من الناس متقاعسة في حياتها ، مسفهة في عقولها وميولها ، بل كان شائعاً عند قدماء اليونان،إذ كانت تقضي عندهم بعض التقاليد الدينية أن يقدموا بنتاً من أجل بناتهم قرباناً للآلهة، في إحدى حفولهم الرائعة، ومثلهم الفراعنة الذين كانوا يقدمون عروساً من أبهى فتياتهم ليلقوها إلى النيل يوم فيضانه ، وقد ابتلى فريق من العرب في جاهليتهم السحيقة بكره البنات إذ كانوا يرونهن وبالاً عليهم لفرط ماجسم لهم الوهم من خطر وجودهن،ووصمة العار إذا فسدت حياتهن وتداولتهن

أحداث الحرب والأيام من سِباء وبتم وحرمان وهوان ، ولقد بلغ من زرايتهم بالاناث أن حرموا عليهن الميراث قبل الاسلام، فكانوا يقولون : لايرثنا إلا من يحمي الحمى ويزود عن قومه بحد السيف،على أن السائد لدى المتتبعين لأخبار العرب وأشعار : أن جناية الوأد لم تكن معروفة إلا في قبائل قلائل من كندة وتميم وربيعة ، وكان الحافز لاقتراف هذا المنكر سفاهة الرأي فيهم وفساد التخيل وإباء الضيم ، ولا جرم في أن جريمة الوأد هذه بصرف النظر عن فظاعتها شيئاً غير يسير من الحب والاشفاق، ثم أليس على قدر الحب تكون التضحية ؟ ولقد كان الوائد إما فقيراً حقيرا ،غليظ القلب يقتل أولاده سفهاً بغير علم وخشية إملاق ،أو ميسوراً ولكنه فقير العقل يخشى العار والذل وهماً إلى حد الجنون،إذ ان غلوه في الحرص على كرامة بنته كان يصورها له بأشنع الصور وإليك أبياتاً تصور اعرابياً يتهافت حناناً واشفاقاً على بنته ، ويتمنى موتها خوفاً من تبذل يزري بها وهوان تصير إليه بعده :

لولا أمية لم أجزع من العدم
ولم أُجب في الليالي حِندِس الظلم

وزادني رغبة في العيش معرفتي
ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

يهوى بقائي وأهوى موتها شفقاً
والموت أكرم نزال على الحرم

أحاذر الفقر يوماً أن يلم بها
فيكشف الستر عن لحم على وضم

إذا تذكرت بنتي حين تندبني
فاضت لرحمة بنتي عبرتي بدم

ومهما يكن من هذا القول ،فان جريمة الوأد في تلك العهود المظلمة من المظالم والجرائم التي ما اجترمها غير الحمقى والغاشمين، وقد يكون أول من سنها ودعا إليها نافماً من المرأة أو حاقداً عليها ، ولا ريب في أن أثر الوأد في قلوب الأمهات،كان أشد من طعن الحراب ووخز السنان ، وما أشد مانقم عقلاء العرب وسراتهم من هـذه المظلمة الغاشمة في الضحايا الموؤودات ، فكانوا يفتدون الولائد بالمال ويستوهبون حياتهن بالمعروف والاحسان ، ومن أشهر المفتدين صعصعة التميمي ، جد الفرزدق شاعر بني أمية القائل :

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوءد

فلما اشرقت دنيا العرب بنور الاسلام ، عد الوأد من الكبائر والمناكر ، وأشار القرآن الكريم إلى الموؤودة برحمة ونصفة بقوله : «وإذا الموؤودة سئلت، بأي ذنب قتلت ؟ فبرأ الدين نفوس المهتدين من مآثم الجاهلية وكل ظن مرجم، وأنزل الله آياته البينات تسخطاً على الوائدين وتأنيباً لمن يكره البنات، ولكن قوماً تعودوا هذا الكره فما نزعوه من صدورهم الموسوسة ، إذ سرى في أعراقهم وجال في أجيالهم ، فدرجوا على مجافاة الاناث ، فكان إذا بشر أحدهم بالانثى تشاءم ونقم،أو توارى من القوم من سوء مابشر به ، وكثيراً ماأدت

ولادة البنت عندهم إلى شجار ونقار، بل إلى هجران وطلاق، وقد اتفق أن أعرابية كانت مثناثا، فلما ولدت بنتاً هجرها زوجها، ولكنه جاورها فكانت تناغي الوليدة بهذه الأبيات :

مالأبي حمزة لايأتينـــا يظل في البيت الذي يلينـــا
غضبان أن لانلد البنينـا تالله ماذلك في أيدينـــا
وانما نأخـذ ماأعطينـــا ونحن كالزرع لزارعينـــا
ننبت ماقد زرعوه فينـا

فما يكاد يسمع زوجها بهذه الأبيات، حتى يسارع إليها وإلى طفلته قائلا : ظلمتكما ورب الكعبة !

ولئن نهى الشرع الحنيف عن وأد البنات، فان نفوس العرب بقيت تجافيهن في الطفولة وفي المعاملة، فكانوا يأنفون من ملاعبتهن طفلات، ويتأبون أن يسرحن ويمرحن بين أيديهم، ولا يجرؤن على اللعب أمامهم، أما الرسول عليه السلام فقد تأبى على ذلك إذ كان يحنو على بناته وبنات صحبه، ولايتجافى عن مناغاتهن والرفق بهن صغريات وفتيات، وبذل الرحمة لهن والمعونة، فلما رأى المؤمنون أن «محمداً» أبر بالبنت من أبيها وأن الله لم يختص فاطمة الزهراء بنت محمد بذريته الشريفة إلا تكريماً للاناث ورفعاً لشأنهن أخذوا في برّهن، والحدب عليهن، ولقد حدث سعد بن أبي وقاص الفاتح العظيم وأحد أبطال المسلمين أنه مرض بمكة مرضاً أشرف منه على الموت، فلما عاده الرسول عليه السلام سأله سعد : إن لي يارسول الله مالاً كثيراً، وليس يرثني إلا بنتي، فهل أتصدق بثلثي مالي ؟ قال محمد لا، ولما سأله سعد قائلا : فالثلث ؟

قال الرسول : الثلث كثير ! إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس ...

وقيل إن عمرو بن العاص رأى معاوية بن أبي سفيان يضاحك طفلته ، فتبرم ابن العاص بهذه الملاطفة وقال للخليفة :

فوالله إنهن يلدن الأعداء، ويبعدن الاقرباء، ويؤدين الضغائن... فقال معاوية : لانقل ... فما ندب الموتى ، ولا تفقد المرضى ، ولا أن على الحزن مثلهن ...

وتعاقبت الأيام والأحقاب، فتطورت العقول، وتداولت النساء أشتات التقادير ، فأهملهن قوم غاية الاهمال ، وأحلهن شعب محلهن من الحرمة والكرامة ،فما فرق بين الجنسين في الحقوق والواجبات، حتى صار من النساء في بعض الأمم الراقية الملكة والرئيسة ،والحاكمة والزعيمة ، دون أي استغراب أو استهجان من الناس ، وتبدل نظر الرجال إلى المرأة طوعاً أو كرها ، فما خفت موازينها إلا عند فريق مايزال مستأثراً محتكراً ، وعلى الرغم من كل تطور في حياتنا الفكرية والاجتماعية فان في هذه الأمة المتحررة المؤمنة، أناساً مابرحوا يرددون سراً وعلانية : همّ البنات إلى الممات ...

وقد يكون بعض الحق مع هؤلاء القلقين، لأن أوضاعنا الاجتماعية والسياسية لم تستقر على حال ، ولم تنتظم الثقافة كافة الناس ، على أن الأثرة الجنسية ، والحكرة في الحكم والتوجيه ، تتجليان في الطبقة الدنيا التي يسودها الجهل والتقليد، ولكم حدثت أحاديث وعاينت مشاهد حول التجهم للبنات والاستخفاف بشؤونهن ووجودهن،

فمن تهديد ووعيد للزوجات الجليلات ، ومن هجران وطلاق بعد الوضع والولادة ، ومن نقمة وتشاؤم ، إلى تحذر وتكدر ، كل هذا تراه وتسمعه تذمراً من الاناث، وتنكراً لهن بغير حق ،فتعجب لهذا الانسان الواهم الغاشم ، يسل سيفاً من خشب في وجه الخالق وينسى قضاءه وقول القرآن « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور »

وفي زماننا هذا بنات يبنين للحياة ، توزن الواحدة منهن بألف من البنين ، لاسيما الموهوبة النابغة ، والذكية المبدعة ، وفيهن من تعول أسرتها وأهلها، وتحمي ذمار قومها ، وتخدم وطنها بفنها وعبقريتها أفما آن لها في هذا الأوان أن تخلص من امتهان الفروق الجنسية واستئثارها واستبدادها ؟ ومتى تنتزع الثقافة العامة من عقول المتعصبين أوهام الجاهلية الموروثة ، نحو هذا الجنس الأنيس الرحيم وقد كتب له القدر منذ القديم ظلم الرجال، واستخفافهم بقدره وخطره

فواعجبي لقوم ينسون حكم الخالق ويخالفون عن أمره! ولقد ضل المصلحون سواء السبيل، إذ حسبوا أن تعليم المرأة على اختلاف بيئتها ومعيشتها يكفي وحده لرقي الشعوب ، وفاتهم ان تعليم الرجل قبلها تعليماً صحيحاً وتهذيب أثرته، هو الذي يكفل الخير والفلاح، لكل أمة وإذا لم يكن للدين وللحضارة إلا حماية الاناث ورعاية الأمور التي ترفع شأنهن وتحفظ كرامتهن وجهودهن لكفاهما فضلا

فما أجدر إنسان اليوم وقد تطور وتعلم ، أو تنور وتفهم باحياء البنات وتقديرهن تقديراً يعبر عن تجرده من أثرته الموروثة، ويعرب عن استجابته لروح الحق والعدل ، وما يكفي من الاحياء أن

يتناول المظاهر والجسوم ، وإنما ينبغي أن يتصل بالأرواح والعقول فيبعث فيها العزة والكرامة ، والهزة للخير والمعروف ، وما تنفع في هذا ثقافة زائفة وتبرج وزينة ، وتطور في الأزياء ، بل الاحياء كل الاحياء بانتزاع الأثرة الجنسية من ظلمات القلوب ، وخلق للبنت جديد ، يقطع عنها لوم اللائمين والغاشمين ، وتهكم المتربصين ، فتحيا في ظل العلم والأخلاق ، حياة تنفع الأسرة والمجتمع ، وترفع شأن الأمة والوطن.

اللآلئ الالهية

هذا الفيض الالهي العجيب ، تتفجر ينابيعه من أعين البشر ، لامن عيون الارض التي تنبجس من خلال المدر والحجر ، أو تنساب في الحدائق والمروج ، فتنبت الشجر وتعقد الزهر والثمر ، وانما تفيض هذه الينابيع من النواظر والمحاجر ، تثيرها المشاعر الحساسة وتفجرها الفجائع والحسرات ، حتى تنسكب على الخدود كاللؤلؤ المنثور ، وقد تغلو فتنحدر على النحور ، حتى تبلل المحمل كما زعم الشاعر امرؤ القيس الذي فاضت مدامعه صبابة ووجدا .

والدمع كما أحسه هذا الملك الشاعر ، عزاء القلب اللاهف والنفس المفجوعة ، ولقد تمناه امرؤ القيس شافياً ومواسياً ، حين تقاذفته الفلوات والخطوب ، وحملته على غوارب الغربة والقطيعة ، وأي امرىء خلا حسه من بواعث الكآبة واللوعة ، التي مهما تقاوى عليها وابقاها مكفوفة مكبوتة ، فلا بد ان يفلت منه مايشير اليه ، بأنه يبكي دمعاً ودماً من قلبه لا من عينيه ، فاذا مست هذا القلب الشجون ، وأمضته الآلام ، تحامل صاحبه على نفسه ، وكأنما انقضت ظهره تكاليف الحياة وبغتات القدر فيتهاوى على قلبه او يمسكه بيديه خشية ان يطير من حدة الهموم وزحمة الرزايا ، واذا عز عليه الصبر واعتراه القنوط اخذ يقلب وجوه السلوى والعزاء ، فلا يرى امامه وجهاً لها ثابتاً مخلصاً فيفزع الى الدموع والزفرات تمده بالفرج والراحة ، ثم يكفكفها ويمسحها ، حتى تجف وتنضب ، الا مدامع المنكوبين والمفجوعين وعبرات الوالهات والمثاكيل ، فانها لاتنطفي ولا تهدأ ، وما تنتهي

او ترقأ على طويل الزمان والتسكاب ، وإنما تزيدها الايام والآلام غزارة وحرارة ،فكأنها ذوب الارواح الجرحى، بل هي لهب الصدور الذي لايخمد لظاه بهمود الاجسام .

اما دموع المرأة اذا صدقت ، فهي كالزهرات العاطرات ، او كقطرات الندى في البكور على الورد والريحان ، ومن حق الادب ان يلم بها واصفاً ، وان يتحدث عنها مترجماً وكاشفاً ، وسامح الله الشعراء فهم الذين سكبوا من الدموع اكثر مما سكبت النساء ، حتى لاتكاد تجد واحداً منهم سواء كان عربياً أم اجنبياً ، قد خلا شعره من ادمع ونحيب ، وقد يستثيرنا الرفق والعجب لو ان هؤلاء النواحين المتشاعرين ، او الذين تسميهم المجاملة شعراء ، قد صدقوا بشعورهم او دمعتهم كآبة في حياتهم وخيبة ، لكانت لهم عندنا معاذير ولكننا نجدهم بكائين بمنظومهم ، شاكين فيه بثاً موهوماً ، او هماً مقيماً ، وهم الناعمون المترفون في معيشتهم ، المستقرون في حياتهم يقولون بنظيمهم ماليس في قلوبهم، وبحسبي ان اجد لبعض الصادقين في شعرهم الدميع عذراً ، قد لايكون جميلاً او مقبولاً ، وهو ان نفوسهم الرهيفة الشفافة ، وطبائعهم الناعمة الوديعة شبيهة بشعور النساء وامزجتهن الرقيقة اللطيفة ، ولا تثريب على بعضهم ممن عبثت بهم الفجائع والمواجع، فلو صفت الحياة وضحكت للشاعر لامرتين، وطابت لنده موسيه ، لما فاضت منهما الدموع بتباريح جرازيبلا وحسرات رفائيل ، ولما كان في شهور القطيعة والاسى ليالي الفريد الخالدة ...

على ان دموع المرأة فرجة من همها وألمها ، وراحة لروحها المرهفة ، ومن ذا الذي لم يستشف امرأة تغرغرت عيناها بالدموع او أمسكتها بين الجفون ثم سالت كاوية أو شافية ؟ الا ان البكاء والنساء صنوان ، ولقد بكين من يوم حواء ، وما أقرب بكاء المرأة اليها وما احناه عليها ، فليس بينها وبينه حجاب ولا حساب ، إنها تبكي طفلةً وعجوزاً ، وتبكي غنية وفقيرة ، تبكي اذا تألمت او أثمت ، وتبكي اذا زلت ثم ندمت ، وتدمع من فرط السرور واهتياج الشعور ، وتستجيب لها المدامع ، اذا حم عندها فراق او خاب لها رجاء ، وتجد في نفسها من سرعة البكاء وسهولته ماتجده من افترار البسمات على شفتيها وتسلل الضحكات الى فمها ، وذلك لرقة قلبها ، ورهافة حسها ومزاجها .

ولقد كانت المرأة العربية اذا تجهم لها الزمان وامضتها الاحزان ، فاض دمعها شعراً ، تقوله عفو الخاطر وعلى سجية الفطرة والالهام ، حتى بذت الرجال في صدق الرثاء ، وكم فيهم شعراء يتكلفون المراثي ويصطنعون المآسي ، للنباهة والظهور ، وقديماً استهزأ المتهكمون بالمرأة ، وعيروها بالنوح والبكاء حيناً صادقة ، وحيناً كاذبة ، وقالوا ان الدمع سلاح المرأة ، ولنعم السلاح هذا ، فهو لايسفك دماً ولا يدمر بيتاً ، أو ليس له الغلاب عليهم احياناً ؟ ولئن عده الرجال سلاح الضعفاء فان الخالق أعده للنساء ، لتتم به انوثتهن وخصائصهن وبدونه يكن قاسيات القلوب ، نابيات الطبع والشعور ، وكان المتنبي من هؤلاء المستهزئين ، المعيرين بالحصول من السلاح على البكاء ،

وكأنه كتب على نفسه اشفاقنا عليه ، حين جاءه العيد ، وكان كالشريد ، لاحبيب عنده يرق لنجواه ، فبكى في شعره وشكا، وعلى طرف النقيض من أبي الطيب كان الشاعر ولي الدين يكن ، يفدي المرأة ، وينافح عنها ويغالي بدموعها ، ولما كتب روايته التمثيلية عن عهد من عهود الاستبداد ،جعل «هجران» تبكي في حضرة مولاها، لتستدر رحمته ،بعد ان أحرقت ستور قصره ، لتثأر منه وتنال ، فعلمت ان ساعة هلاكها قد اقتربت اذ صرخ فيها :

— لاتخدعيني بهذه الدموع ،فكم خدعت بها سفيراً !

ولكم بكى رجال بدموع التماسيح ، فنسجوا من حياتها خدعاً وأحابيل ،أغروا بها غفلا وغرائر ، وهي لعمري شبيهة بدموع النوادب المستأجرات، والمراثيات الداهيات ، فأفسد المخلوق ذكراً او انثى ،أغلى فيض حفرت نبعتيه يد الخالق في رأس الانسان ، وأودعتها من اسرار الحياة ماأعيا البيان ، فانه ليس في الوجود اروع من دمعة صادقة ، هي افصح في صمتها من شقشقة الكلام وبلاغة اللسان ، ولرب عبرة حائرة ، اذا فاضت بها الاحزان والآلام ، تكاد تكون كاوية للاجسام ، لو قدر لها ان تكشف عن حقيقتها وسر لهفتها

ولا ادعو المرأة وانا اتحدث عن دموعها لان تبرع وتغلو في تسكابها في كل ماعز وهان ، وان تزيد في عبوس الدنيا كآبة وجهامة ، وهي المخلوقة للانس والسلوى والمواساة ، والتخفيف عن مواجع الحياة ، فعليها ان تحفظ دمعها غالياً لمشاهد البؤس والحرمان

ومواقف البر والحنان ، فاذا ألمت بيتيم او محروم ، أعرب دمعها عن الرحمة ، وهزها الاحسان والصدقات ، ولئن كذبت الدموع واختلطت شؤونها بشجونها ، تبين فيها من يبكي ممن تباكى ، فأن هنالك امرأة عبرى ، مرت في دنيا العرب ، ولم ينجب الدهر مثلها ، وسوف تبقى دموعها برهاناً على ألمها وحزنها ، تلك هي الخنساء شاعرة البكاء ، التي بللت شعرها بالدمع الصبيب ، وستبقى هذه الوالهة في تاريخ الادب وعلى فم الزمان ، مثلاً شروداً على الصدق والحنان في دموع المرأة .

ولئن خلد الخنساء قصيدها في الرثاء ، فحفظ الأدب دمعها في عيون الشعر ، فكم بكت بعدها شاعرات والهات ، كن يسكبن العبرات في صمت وانطواء ، ولم يبلغ عويلهن مسامع التاريخ فيخلده في الرثاء كما خلد الخنساء ، وقد طواهن النسيان ومسح الزمان على تلك العيون المستعبرة فجفف دمعها ، حتى كانت في آخر هذا الركب الشاعرة « عائشة تيمور » على ضفاف النيل

لكأني أراها متلفعة برداء الحداد ، لايرقأ لها دمع على بنتها التي بكتها طويلا ، حتى ابيضت عيناها من الحزن كما بكى يعقوب فقد يوسف

ولئن رد على ذلك الشيخ المفجوع قميص ابنه فارتد بصيرا ، فهيهات ، هيهات ... ماردّ الدهر على « التيمورية » منديلا ولا قميصا ، ولعل شعرها الباكي يكون في أدبنا العربي رجع الصدى لعويل الخنساء ،

لكأني أرى صورة هذه الشاعرة الوالهة، تعود ناضرة شابة، تموج على مهاد فلسطين، فتمضي في حمى « نابلس » وتعلو جبل النار لتسفح من هنالك الدمع الغزير على أخيها « ابراهيم »

تلك الشاعرة اللهفى « فدوى طوقان » فاكم أرسلت الشعر بعد الشعر، في رثاء أخيها الذي تفتح كالزهر قبل أوانه، وملأ دنيا العرب بعبقريته، وكانت فارغة من الشعراء الملهمين

لقد قصف الداء غصنه الرطيب، وهو في ريق الشباب، فراحت من بعده « فدوى » تفديه بالدمع السخين، والشعر الرصين

المرأة والتعليم العالي

جاز للناقد الأدبي أو للمعلق السياسي، أن يتصدى لمقال منشور لكن فيبين أثر انطباعه في نفسه ، ويكشف عن وجوه الفكر فيه وانحراف القلم عن السداد ، فجائز في هذا الباب ان يكون للمستمع حق في ان يتصدى لحديث مذاع ، فيظهر أثر وقعه في النفوس ومدى الصواب او الخطأ في اسلوبه ومراميه .

كذلك أقبلت على استماع الحوار الذي دار بين نخبة من ذوي الفكر والثقافة ، فيهم المصري والسوري واللبناني والعراقي ، ولن أعجب لهذا الاتفاق الذي اتاحه موسم الأونيسكو في بيروت ، فان مندوب الاذاعة العربية لمحطة الشرق الادنى قد تحين تلك السانحة المواتية فدعا فيها، لحديث مشترك الاساتذة الكرام محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف المصرية ومن جهابذة التاريخ الحديث في وادي النيل ، ومتى عقراوي من قادة الفكر في العراق ، وجميل صليبا عميد المعهد العالي للمعلمين في سورية ، وعبد الله المشنوق من اعلام الثقافة والصحافة في لبنان .

دعي هؤلاء المفكرون ، للتحاور في موضوع معاصر خطير يمس الحياة العلمية والاجتماعية في البلاد العربية وهو «المرأة والتعليم العالي» وقد أقبلت على السماع اقبالي على القراءة والاطلاع ، وهذا من اجل روائع الحضارة الراهنة ، فمَنْ لاجدادنا الاوائل حين كانوا يتفننون في السماع ، ويبتغون اليه الوسيلة ؟ حتى صار عندهم طريقة

في تلقي العلم والمعرفة ، فكانوا يحققون آباط الابل ، فيسمون بأخفافها وجوه البيد ، سعياً وراء التلقي والسماع ، من عالم كبير او شيخ خطير ، ويحرصون كل الحرص حين يروون ويكتبون ماسمعوا، على ان يذكروا مكان السماع، وكيف جرى أمره وخبره ومن كان معهم في حلقته ، حتى أدخلوا في الادب مناهج السماع في الحديث ، فأطلقوا على أفذاذ هذا الفن القاباً خاصة به ، كأن يقولوا كان فلان من أصحاب السماعات العالية ، اي انه كان يأخذ الحديث من الصحابة والتابعين ، وللادب صحابته وتابعوه ، سقى الله عهود تلك الحلقات العامرة والمجالس الزاهرة التي كان فيها هواة الشعر والأدب ينصتون للمتحدث او الناقد مأخوذين بسحر البيان ، وفصل الخطاب .

أولئك قوم كانوا يقدرون قدر الكلام ، فلا يغادرون منه صغيرة ولا كبيرة ، الا تثقفوا بها وتلقوها بالوعى والتمحيص ، وسلكت مسامعهم على هون وهدى، لتستقر حتى موتهم، في قلوبهم الذكية ، وخواطرهم الصافية .

وما أحسب في بدائع هذا العصر منحة هي أجمل من منحة المذياع للأسماع ، ولعل المبصرين لايحلون هذه الهبة الغالية محلها من العناية والرعاية ، كما يحلها المكفوفون ، ففي استماعنا للاحاديث الممتعة النافعة ؛ والمطارحات البارعة ، والغناء الحلو الرخيم غنية اية غنية لنا، معشر الفانين على الارض .

بهذا الشعور ، كنت ارهف السمع للحوار الطريف الذي دار بين صفوة من أعلام الفكر والثقافة قطف خواطرهم مندوب الاذاعة ، قطاف الشميم لطاقة ربا من الازاهير ، جمعها من حدائق اربع : واحدة يتهادى بين اعطافها النيل ويطل عليها النخيل ، وثانية ينساب في ميثائها دجلة معيداً سجيس الليالي ذكرى العباسيين وثالثة يموج بردى بين نيربيها ، فيبعث أمية حديثة في القرن العشرين ، وأما الرابعة فيداعب البحر أذيالها ويترنح الصنوبر والارز فوق لبنانها .

سأل السائل مارأي السادة المتحاورين في تعليم المرأة تعليماً عالياً ؟ وكان الاحرى به ان يسأل مارأيهم في تعليم الفتاة العربية تعليماً عالياً ، لأني أجد كلمة الفتاة هي الحجر الكريم لهذا الخاتم الجميل ، وقد استهل الكلام الاستاذ غربال بك ذاهباً الى ان التعليم في جميع مراحله حق للبنين والبنات على السواء ولا ينبغي ان يقتصر نوع منه على الفتى دون الفتاة ، على أن تأخذ منه بما هو أجدى عليها وأولى بها ، وأن تراعى في ذلك الحاجة والاسباب ، ولعله شاء ان يقول بان تقبل الفتاة على التعليم الذي يمت الى حياتها وطبيعتها بسبب ، فالطب مثلاً ضروري لها والتدريس ، وان لم يصرح بهذا ، والمحاماة والهندسة قد لاتفيد منها الا بمقدار ، فانبرى له الاستاذ المشنوق مستهجناً متهولا بهذا الرأي ، ولو لم أعرف شخصه ، لتخيلته من وراء المذياع شيخاً زميتاً ، مكور العمامة ، مسترسل اللحية

طويل السبحة ، اذ كانت هجمته برمح وسيف ، ولم تكن بقذيفة ورشاش من الرصاص ، لأن الراي الذي جاء به يعود زمنه الى عهد الهجوم بالرمح والسيف ، ولعل القارىء او القارئة ممن لم يستمع لذلك التحاور يعاجلني في ان ابسط رأي الاستاذ المشنوق بتعليم الفتاة العربية ، لكني أخشى عليه من فتياتنا الغاليات في العناد ، ان يقمن عليه حرباً عوانا مااحسب خطر البسوس عنده كخطرها ، ولن يكون سلاح هؤلاء الفتيات المتأبيات سيوفاً ورماحاً ، ولا قذائف او بنادق ، وانما سيحشدون اليه ادوات المطبخ من كل شوكة وملعقة ، لأنه يريد الفتاة للمطبخ ، ويريدها للنسل فحسب ، ويريدها على ان لاتبوح البيت ، فهو يحرم عليها بالثلاث ان تتعلم تعليماً عالياً ، ويسد باب هذا التعليم في وجهها ، ويضع عليه قفلاً ضاع مفتاحه ، ويحتدم النقاش بين غربال بك وبين الاستاذ المشنوق حتى يشيع في كلام الطرفين شعور السامع بالدفاع والهجوم ، وكانت الحرب منذ وجدت لاتخلو من حكمة وشورى ، فقد كان العرب في الجاهلية يستطلعون رأي ابن ساعدة الايادي في بعض مغازيهم وأيامهم ، وفي العصور الاموية والعباسية ، دخلت الحكمة والفلسفة بين المتجادلين ، وكذلك كان الشأن في هذا الحوار الذي اخذ شكل حرب فكرية ، فأقبل الدكتور صليبا ، وانا اعرف سمته واناته ، وفرق بين الخصمين في الرأي ، ولا ادري ان كان قد اتيحت له النجاة ، فان الدخول بين متعاركين ، لايسلم من صدمة او خدشة ،

ولعل ذلك لم يبد للمستمعين والمستمعات، وقد يكون ظهر في نظرة او رمقة او اشارة ، فقال الدكتور صليبا يتعليم الفتاة ماتشاء من ألوان التعليم وفنونه دون حدود او قيود ، لأن اوضاع الحياة قد تغيرت وآراء الناس قد تطورت والمفاهيم العلمية والاجتماعية قد تجددت ، واصبحت المرأة في ايامنا يعوزها ان تتسلح بالدراسة العالية والجامعية أسوة بالرجل ، والمجتمع الراهن قائم على كفاية الجنسين ومجهودهما ، فينبغي ان تسود فيه العدالة الثقافية لتتقارب الافهام ، وتقل مسافة الخلف بين الرجال والنساء .

وكان الدكتور متى عقراوي على طرف النقيض مما جاء به الاستاذ المشنوق ، ولو أن هذا التحاور كان دينياً لبرز الغلاة المتطرفون ، والزميتون المتشددون ، فاذا كان الاستاذ عبد الله من هؤلاء المتصلبين المتزمتين كان الدكتور متى من الغلاة المتطرفين ، اذ ارتأى أن تتعلم الفتاة العربية تعليماً عالياً مطلقاً ،لانقف في سبيله طبيعة ولا حاجة ، ولا بأس عنده أن تكون المرأة العربية طيارة أو مهندسة أو غوّاصة ، وها هنا يقف الاستاذ عبد الله وحيداً في معسكره اذ يكون الثلاثة متقاربين ، فيعيد الكرة في الهجوم متفزعاً مما سيؤول إليه الرجل والمرأة في هذا التعليم ؟ فهو يخشى ان تنزل النكبة الكبرى في الزواج والأمومة والاسرة، اذا تحقق التعليم العالي للجنسين على السواء ، واني لأعجب للاستاذ المشنوق وهو يعيش في عصر الذرة ، ومن المؤمنين بالتطور ان يرتد الى آراء

المعري وشوبنهور وروسو وأمثالهم من أعداء النساء ، وقد أكل الدهر على هذه الآراء وشرب، وادرك الناس سرها وخبرها، وطلع من بعدها لاساطين الفكر وعلماء التربية والاجتماع آراء ومقررات حديثة مبنية على الخبرة والتجاريب تساير الحاجة والزمن وتعد المرأة لحياة يقتضيها هذا العصر ويدعو اليها التطور، واذ كانت الامة العربية في نهضة من كبوة متطاولة ، فهي بحاجة ماسة الى الاخذ بالمذاهب المعاصرة في التربية والتعليم ، وما له صلة باسباب الرقي السريع ، وبلادنا اليوم محط انظار العالم، لاسيما بعد ان اقتحم اليهود بهرتها ، فاذا كان هؤلاء الدخلاء ، والغربيون الاقوياء ، آخذين بمذاهب التعليم الحديث في اعداد المرأة اعداداً ثقافياً يلائم الحياة ، فهل يرضى الاستاذ المشنوق بان تلزم المرأة العربية المطبخ ولا تتعداه ، وان تكتفي بالامومة دون ان تتطلع الى سواها ، وقد ثبت في حربنا الاخيرة مع اليهود ان كل فتاة منهم وكل امرأة ، كانت مجندة فيها او عاملة ، ولم يكن اكثرهن أميات او جاهلات ، وانما كن متعلمات ومثقفات .

ولا تثريب علي اذا ذكرت للزميل العزيز الاستاذ عبد الله المشنوق ان هذه النغمة التي يرددها في حواره ، او هذه النقمة التي يحملها في صدره ، قد سبقه الى ترادها الاستاذ العقاد والاستاذ الحكيم في مصر ، وكانت لي معهما مواقف نقد وعتاب حول هذا الموضوع ، اذ كنت عذيرة لهما فيما اصطنعا من عداوة

للمرأة حين لم يعرفاها على حقيقتها ، ولم يؤمنا بكفايتها ومزاياها ، أما الاستاذ المشنوق وهو من موجهي التعليم في لبنان، ومن القائلين بمسايرة العصر فكيف تخامره هذه المخالفة القاسية، ولاأقول العداوة التقليدية ؟

وكيف تم الامر فقد انتهى التحاور والنقاش دون ان يجمع أصحابه على رأي واحد أو توجيه شامل، وكان الأحرى بان لايضيق على هذا الموضوع ولا يرتجل فيه الرأي والفكر، فقد يقتضي للخوض فيه مناظرة واسعة، او محاضرة محكمة ، يحشد فيها المتكلم حجته البالغة وبرهاناته الدامغة ، ويسرد الشواهد من الشرق والغرب ، على ان وجه التوفيق فيه أنه جمع نخبة من أعلام الفكر والثقافة ، تمرس كل منهم بشؤون التربية والتعليم ، ولا انكر ان تلك السانحة العابرة قد عاجلت المتحاورين فلم يجيروا الجواب الكافي حول الموضوع ، وبقيت في انفسهم آراء لم يعرضوا لها ، ولو ان سيدة مثقفة خبيرة بهذا التعليم شاركتهم في الحديث ، لكان لها رأي يخالف عن آرائهم او يمضي معهم فترة ، ثم ينعطف الى وجهته التي ينساب فيها ، وقد يكون من الجور ان يتناول الرجال وحدهم مايتعلق بحياة المرأة وقضاياها ، فيدرسوها ويقطعوا بها أمراً أو يتركوها للزمن، دون أن يسألوا المرأة أو يعبؤوا برأيها ، ولئن جاز هذا في الماضي فتفرد الرجل بالرأي والحكم ، كأنه الوصي الابدي على القاصر الذي لايرشد ، فقد تبدلت اليوم العقول ، وتحولت المفاهيم ، وادرك أهل

الفكر والوعي أن لاقيام لأمة بغير نسائها ، وارى أن يباح التعليم في مراحله الابتدائية والثانوية للجنسين على السواء ، وأن يكون للمرأة رأي ويد في الاشراف على هذا التعليم ، وتحقيق اهدافه ومراميه ، اما العالي أو الجامعي فانه يقتضي وعياً كافياً وثقافة متينة في الفتى والفتاة ، ولا يعد هذا التعليم استتماماً للمرحلتين السابقتين ، بل ينبغي أن يكون مقصوراً على الموهوبين والنوابغ وذوي الاجتهاد المكين ، والرغبة الاكيدة في الجنسين ، فليست الدراسة العالية والشهادات الرفيعة ، زينة للفتى او حلة للفتاة ، ولا وسيلة للوظيفة ، وانما هي أفق بعيد لقطاف العلم والادب ، وتحقيق الانتاج الفكري والابداع الفني ، وقد تكون المنالة المادية ، من مقاصده واهدافه ، لكنها ليست الغاية ولا النهاية ، وخير للفتاة الف مرة ان تقنع بالتعليم الابتدائي او الثانوي اذا كانا صحيحين ، فانها افضل من تعليم عال او جامعي يزيد في جهلها ويملؤها سخفاً وغروراً .

ومن عجب ان يعالج هؤلاء الاساتيذ المتحاورون تعليم الفتاة العربية تعليما عالياً ، ولا ينظروا الى تعليمها الراهن ، وهل هو قائم على قواعده المحكمة حتى تمضي الفتاة بعده الى المعاهد العليا والجامعات ، فأشبهوا عندي بمعالجتهم هذا الكمال ، اناساً بحثوا في كساء الرأس لمن لايزال عاريا او حافياً .

فاذا بني تعليم الفتاة على دعائمه الراسخة ابتدائياً وثانويا ، صح بعد

ذلك ان يرفع بناء التعليم عالياً ، وحينئذ لامناص من فتح الابواب لمن توافر لديها الاقتدار والموهبة والذكاء ، والا فلا تزيدوا الفتاة زهواً وخيلاء فيما تصنعون لها من بهرج الالقاب التي ماأرى الا القليل من حاملها ، قد رفعوا شأنها وحفظوا حقها .

وقد تتفاوت الحاجة الى التعليم العالي بتفاوت الاستعداد والبلاد ، فالتدريس والطب والآداب والفنون ، تجدي على المرأة العربية المعاصرة ولا تعوقها عن رسالتها ، بل تكون سبباً للتجويد في عملها ، وامتداد الآفاق امامها ، ولا ضير على الفتاة الموهوبة بان تكون مهندسة او زراعية او عالمة بالطبيعة والرياضيات ، فان مدام كوري أتمت صنع زوجها ، وزوجة فلاماريون الفلكي ماتزال تدير وهي في شيخوختها لوالب المنظار الكبير الذي شاب زوجها امامه وشاخ ، وكثير من النساء يشرفن على مزارعهن في اوروبة واميركا ، وقد دلت المرأة التي تعلمت تعليما عالياً ، على انها اكثر من سواها صلاحاً للحياة الزوجية والمنزلية وان تعليمها هذا قد زادها تعلقاً بالزوج والولد ، والماماً بشؤون التربية والبيت ، واستطاعت الى ذلك ان تمارس عملاً تتقنه ، وتتكسب منه وتفيد المجتمع ، ولم يؤد تعليم المرأة عندنا الى مضرة او مساءة ، بل فتح للمرأة آفاقاً جديدة صرفتها عن اللهو الفارغ واللغو الثقيل ، ولو انصفنا وقلنا كلمة الصراحة ، لوجدنا ان النساء جميعاً يؤثرن في الرجال مهما كابر الرجال ،

فان كن متعلمات كان منتوج هذا التأثير أقرب الى الخير والصواب، وابعد عن الشر والضرر .

ان هذا العصر يكشف ظلامة المرأة، ويضع حداً لغلو الرجال في تحرجهم من ظهورها، ومهما وضعوا في طريقها من عثرات فانها قادرة على تذليلها ، ماضية في سبيلها ، وقد اتاحت لها الحاجة والثقافة ، ان تقوم بأعمـــال كانت وقفاً على الرجال ، وقد كانت المعامل في الحرب الأخيرة تدار بأيدي النساء. فكن يصنعن القنابل ويربطن اجزاء الطائرات ، ويقفن امام افران الكهرباء المتوهجة فيصهرن الحديد ، وليس عليهن في كل هذا من بأس اذ كانت لهن ساعات يعدن فيها الى بيوتهن واهليهن والى المطبخ الذي يريده الاستاذ المشنوق (١)

وبعد فان غريزة الامومة أسمى ماتطمح اليه المرأة مهما كانت مكانتها ومواهبها ، ولن يشغلها عن البيت والزوج، وعن الولد والاسرة اي شاغل اذا كانت واعية مثقفه، سليمة الشعور، راجحة التفكير والتدبير

«١» يخيل الى من لايعرف حقيقة الفن الذي اختص به الاستاذ المشنوق من بين أدباء العصر ، أنه عدو للمرأة يكره لها الحرية المثلى والثقافة العالية ، والصحيح في أمره أنه في أدبه من انصار المرأة المخلصين ، لكنه يصطنع حينا بعد حين هذه العداوة في صحافته ، لانه قد أتقن فنون الصحافة المعاصرة .

«٢» مندوب الاذاعة العربية للشرق الادنى هو الشاعر الاديب الاستاذ رشاد اليبي

الثقافة النسوية المنشودة

لم تعرف الانسانية عصراً قد احتفى بشؤون المرأة كهذا العصر، الذي قيض لها أسباب المعرفة والثقافة ، وأعدها لكل مهمة تقتضيها الحضارة الراهنة، حتى أنها سلكت مسالك الرجال في شتى مرافق الحياة،مما دعا اولي الامر وذوي الرأي الى الاهتمام بتطور المرأة وتوجيهها نحو ثقافة خاصة تعصمها من الزلل والانحراف ، وتضمن لها السمو والسداد فيما خلقت له وندبتها اليه طبيعتها ومواهبها ، وقد بدا لي ان اتساءل : وهل ينبغي ان تكون للمرأة ثقافة خاصة غير ثقافة الرجل ، وهذا العصر يهدف الى مساواة الجنسين بالحقوق والواجبات ؟

نعم ، فان الحكمة والتجاريب تقضي بأن يكون للنساء ثقافة خاصة الى جانب الثقافة التي يشاركن فيها الرجال ، ولعل المرأة العربية لم تكن في مسيس الحاجة اليها كهذه الايام لكي تساير العصر في تجديده وتحفزه ، وتسير في ركب المثقفين الذين استجابوا لمطالب الحياة واحاط وعيهم بكل تطور فيها

الثقافة من الكلمات المحظوظة في زماننا ، اذ كانت منكمشة في ثنايا المعاجم وفي تصانيف اللغة ، لم ترددها اقلام المعاصرين وما صقلتها السنتهم الا منذ عهد قريب ، فهي خفيفة اللفظ ، كبيرة الحظ من المعاني والاهداف ، فيها من قوة الحياة مايشف عن روح الامة

التي انبثقت منها ويكشف عن اصالتها وطموحها ، واذا قلت ان كلمة الثقافة ، حديثة الشيوع ، رمزية المعاني فلا يقع في الاوهام أن العرب لم يعرفوها ولم يألفوها ، فما اكثر ماوردت في اشعارهم واخبارهم ، وانما تضاربت اقوالهم في مراميها وتباينت في تداولها ، اذ كانت هذه اللفظة كغيرها من الالفاظ المنتزعة من الحياة في البادية ، معبرة عندهم عن تسوية الرماح وتقويمها ، ثم آلت في عصور الفتح والحضارة الى معان أخر ، اقتضاها التعبير الجديد فدخلت باب الرمز والمجاز ، ولقد درجنا نحن العرب المعاصرين على فهم هذه الكلمة من نواحيها الاجتماعية الحاضرة ، وتوسعنا في الوسائل التي تؤدي اليها وتؤيدها لانبساط آفاق الحياة في ايامنا ، وتمازج الثقافات عندنا ، فجمعنا بين ماأراد الشرقيون منها وبين ماعناه الغربيون الذين يرون ان اثر الثقافة في الناس كأثر الفلاحة في الارض ، هذه تحرثها وتنقيها ، لتؤتي أكلها ويطيب جناها ، وتلك تهذب النفوس وتغذي العقول لتسمو الحياة بسموها .

كذلك غدا مدلول الثقافة شاغلا حيزاً كبيراً في الدراسات والبحوث ، وعلى ضياء هذا المدلول الحديث اعود الى الثقافة النسوية المنشودة ، فأقول ان وسائل هذه الثقافة اصبحت لدينا ميسورة موفورة ، ولعل اقربها تناولا ونفعاً هي المعاهد العلمية ، فهل اصبحت المتعلمات مثقفات ؟ وما هي المقاييس التي نقيس بها ثقافتهن والموازين التي يرجح بها قسطاس المثقفات ؟

يتفاوت نظر الناس الى هذه الموازين وتلك المقاييس ، فمنهم من يقدرها بالشهادات المدرسية والالقاب العلمية ، فلا ترجح عندهم كفة متعلمة الا بمقدار ماأحرزت منها ، وبات اولو الامر لايحسبون حساباً لغير ماأصطلح عليه الناس في هذا التقدير ، وذلك شأن الامم اللاتينية التي تزن كل كفاية ودراية بميزان الثبوت والاجازات مهما كان نوعها وحاملها ، حتى وقع في حسبان فتياتنا انها غاية المعرفة ونهاية الثقافة ، فابتغين اليها الوسيلة ، وسعين بكل ماأوتين من جهد وطاقة مأخوذات بما عقدن عليها من رجاء ، حتى اذا ظفرن بها وحظين بالوظيفة المنشودة ، فتر فيهن السعي وانقطعن عن كل درس وبحث ، نابذات وراء ظهورهن الاسفار والدفاتر التي حفظن نصوصها ليوم معلوم ، كان خاتمة المطاف واستقرار النوى ، وقد فاتهن ان الثقافة لاتوزن بثبت مكتوب ، ولا تثبت في طلاء زائل ، فهي فيض روحي وعقلي ، وقوة سحرية خفية تميز المثقفة من غيرها ، وتضيء آفات تفكيرها وحياتها بشعلة الحق والجمال .

وفي الناس فريق يخيل اليهم ان مقياس الثقافة النسائية يقوم باشتات المعرفة النظرية التي تتلقاها الفتاة وهي طالبة ، من رياضيات وطبيعيات ، ومنطق ولغات ، وأن هدف هذه المعلومات المتنافرة الالوان هو التكسب باسمها والتفاخر بألقابها ، والا فما جدوى المدرسة والدراسة في نظر هؤلاء إن لم تكن وسيلة لضمان الوظيفة والمرتب ، وسبيلاً الى الشهرة والظهور ؟

ما كانت الثقافة لتعرف قيوداً أو حدودا ، فهي عميقة كالبحر ، رحيبة كالسماء ، شاملة كشعاع الشمس ، وحاشا أن تكون رسالتها وغايتها للمنالة والاستغلال ، وشتان بين المتعلمة والمثقفة ، فقد تحمل الاولى اضخم الشهادات ولكنها جوفاء المعرفة نابية الجانب ، بادية الاسفاف في حياتها المنزلية والاجتماعية ، فهل تستوي ومن تثقفت وتحررت من السخف وعرفت نفسها ومضت في موكب الحياة على هدى العقل والبصيرة ؟ ولو ان روّاغة فارغة ، او متنطعة متراطنة ، قد ملأت المجالس بذكرها ، أتكون من المثقفات ؟

ولا يبعد ان تكون ثمة واحدة على شاكلة هؤلاء تحلت بزينة من المعرفة المصطنعة كطلاء الوجوه وبهرجة الثياب ، ولا اطيل في وصف اشباهها ممن تلقين ثقافة عجفاء متخطفة ، لم تنفذ الى الاعماق ولم تصقل الاذواق والاخلاق ، او ممن لايستطعن أمساً ولا غداً ، غير انهن يرددن مايسمعن دون تفكير او تمحيص ، فيسترن مافي نفوسهن من غباء وهراء ، وراء ادعاء او كبرياء ، ويتشدقن بكلام تؤخذ به الاميات والساذجات .

فالمثقفة هي التي تعلمت وتسامت في ايمانها وشعورها ، وامتد خيالها وتفكيرها الى آفاق الوجود .

هي التي تنمي معرفتها وتغربها بمنتوج العقل وفيض القرائح ، وتستمد من كل ثقافة مسموعة او منظورة قوة تستعين بها على الحياة هي التي تتبع كل جديد سديد ، ولا تبخل بثقافتها على جهود

تبذلها لاسعاف الانسانية البائسة ، هي التي تسمعها فلا تسأم حديثها وتودلو انها لاتوجز ..

وهي الى ذلك ربة البيت القؤوم على الاسرة والولد ، لاتخرج على طبيعتها وانوثتها ، مهما سمت ثقافتها وتعددت مواهبها .

وبعد فما هي الثقافة الخاصة التي ننشدها اليوم للمرأة العربية وهي على وصيد عهد جديد ؟

نريد لها ثقافة مكينة تنفذ الى روحها فتصقلها ، وتثير فيها الشوق للخير والاحسان ، ثقافة ترفع مستواها وتحفظ تقواها وتشغل فراغها بما يعود على بيتها ومجتمعها بالخير والفائدة ، على ان تشتمل هذه الثقافة المنشودة على مايشق للفتاة المعاصرة آفاقا جديدة ويواتي الحاجة الراهنة ، كالفنون الجميلة التي تتفتح فيها مواهب الفتيات من موسيقي وتصوير وزخرفة وتطريز ، الى علم النفس وتربية الطفل وادب اللغة وما شابه ، واذا قدر لطالبة هذه الثقافة نصيب من ثقافة اجنبية ولم تدعمه بلغة اجدادها وتشعر بشعور بلادها ، فانها تعيش عدوة لقومها ، غريبة عن مجتمعها .

ولست في مقالي هذا بداعية الى حرمان الفتاة من الثقافة العامة والجامعية التي تعدها كما تعد الفتى ، فان توافرت الشروط والمواهب فلا ضير على فئة من الفتيات بان يمضين نحو هذا الافق البعيد اذا كن يستطعن التحليق والتدويم في اجوائه المتسعة

اما الثقافة النسائية المنشودة ، اذا اتيح لها الظهور على قواعد

راسخة وتعهدتها ذوات المواهب الفنية والتوجيه المرموق، ممن أوتين معرفة شاملة ومرانة دائبة فانها تحقق أمنية من اغلى اماني الامة ، باعداد مثقفات حصيفات ، وهل يتسنى للمرأة مشاركة الرجل في معالجة الفقر ونفي الجهل والهوان من الطبقة الدنيا اذا لم تكن مثقفة؟

وكان الامر يهون لو ان المرأة في بلادنا تقتصر على مثل هذه المشاركة في الاصلاح الاجتماعي مع ماهي عليه من تأخر ثقافي ووعي فكري ، لكنها طامحة ملحة في التماس حقوقها السياسية والاجتماعية التي لايصح ان تحظى بها الا بعد ان ترقى الى مستوى الرجل المثقف ، والمتعلم المتمرس بالحياة.

ومما يبعث الامل والطمأنينة ان تكون مصر سباقة الى الاخذ بهذه الثقافة المنشودة ، والافادة من وعي المثقفات ونشاطهن ، فأسست للفتيات مدارس خاصة للثقافة النسوية والفنون الطرزية ومعاهد عليا للموسيقي والتصوير والتدبير المنزلي والتربية البدنية والخدمة الاجتماعيه والامومة ، حتى بعثت القائمات على نشر هذه الثقافات نهضة حديثة في دنيا المرأة المصرية ، فتمنيت ان تقوم في بلادنا السورية حركة جديدة في التعليم النسائي ، تؤدي الى مثل تلك النهضة ، لان هذا التعليم مايزال مهملاً لايلقى عناية وتقديراً، وثقافة البنات تجري على المنهاج المرسوم للبنين ، وكلاهما يهدف الى ضمان الوظيفة والمرتب ، اكثر مما يهدف الى التزود بالعلم والمعرفة او التمرس بالبحث والتوجيه

ومن عجب ان تستثني وزارة المعارف السورية بعثاتها الفنية النسائية من شرط الشهادة في الدراسة الثانوية ، فهل يصح لدى علماء التربية مثل هذا الاستثناء ، وهم يعلمون أن لاخير يرتجى من ايفاد طالبات مبتدئات الى مصر والبلاد الاجنبية ، وقد شهدت بنفسي حين كنت موظفة بمصر في أرقى معهد فني نسائي ان الطالبة الشرقية اذا لم تكن مزودة بمواهب خاصة وحاملة شهادة الدراسة الثانوية على الاقل مثل البكالوريا او المتركوليشن فانها لاتقبل في المعاهد العالية وكذلك الشأن في أوروبة وأمريكا ، ومن اتيح لها ان توفد للدراسة العالية من غير استعداد ولا مؤهلات أصيلة ومكتسبة لقيت خيبة ومهانة أو راحت تلتمس الشفاعات .

ولئن كان المراد ايفاد المبعوثات اللاتي من هذا القبيل الى المدارس المتوسطة ، فليس هذا غير خسارة المال واضاعة الوقت ، لان مدرسة الصناعات والفنون للبنات بدمشق ، تعادل أمثالها من « الثقافة النسوية » و « الفنون الطرزية » بمصر ان لم تكن فوق مستواهما ، فاذا كان ذلك القرار الاستثنائي اقتضت رسمه حالة خاصة فلا ينبغي اطلاقه ، لئلا تدخل من بابه كثيرات لاترجى منهن اية فائدة ثقافية او فنية .

ان التعليم النسائي في مصر لم يزدهر في نهضته الحديثة الا بجهود طائفة من صفوة المثقفات اللاتي أوفدن للغرب للتخصص والدراسة الجامعية والفنية ، فأفدن فوائد جلى تجلت فيما عهد به اليهن بعد العودة

من تدريس وتوجيه ومراقبة ، غير منحرفات عما اضطلعن به وكن بسبيله او سافرن من أجله ، فليت شعري ماذا أفادت سورية من بعثاتها النسائية إلى الغرب ؟ فأنا أعرف وغيري يعرف ان أكثر اللواتي ارسلن في بعثات علمية من سورية ، قد عدن كأكثر المبعوثين من الطلاب والشباب، مزودات بالشهادات ، وقد دخلن غمار التعليم من اجل كسب الحياة ، ولم يظهر بينهن إلى اليوم كما لم يظهر في امثالهن من الرجال ، إبداع ونبوغ، ويعود ذلك إلى السبب الأول الذي اتاح لهؤلاء مثل هذا المصير، لأن النبوغ والتألق، او المواهب والمزايا،لاتصنعها الشهادات ولا تمنحها الجامعات، وإنما هي شرط اصلي ينبغي ان يكون في المبعوث قبل بعثته ، بل هي من المقومات الأولى للشخصية ، يزيدها العلم والتجدد وضوحاً واقتدارا

ولقد آن للمعارف السورية ان تعني بالثقافة النسوية ، وتوجيه الفتاة الوجهة المثلى التي تلائم طبيعتها وتكشف عن مواهبها وتسمو بها فوق المنازع المادية ، فان البيت والمجتمع في حاجة ماسة إلى ثقافة خاصة تسعد بها الاسرة والوطن ، ويرتجى من ورائها كل خير عميم .

فتش عن الرجل

أكثر الناس لاسيما الرجال ، كلما وقع في الدنيا حادث جلل ، أو خطب فادح ، أن يقولوا ويرددوا هذا القول : « فتش عن المرأة » ، فاذا رأوا قتيلا أو غريقاً ، أو عرفوا شاباً قد انتحر ، أو بيتاً سرقه اللصوص ، أو زوجاً شريداً هجر بيته وأسرته ليبيت في الحانات ، أو خصومة قامت واحتدمت ، صرخوا جميعاً بصوت واحد أو دارت بينهم الهمسات والوشوشات قائلين : فتش عن المرأة ...

نعود

هذا القول الغاشم البغيض ، يردده الشرقيون والغربيون في الصدمات والنكبات ، ويجعله الصحافيون عنواناً لبعض الأخبار في صدور الجرائد ، لما فيه من إغراء وتنبيه ، على أن كثيراً من المتعلمين والمثقفين إذا اطلعوا عليه أو سمعوه حسبوه لحكيم من حكماء الغرب او نسبوه لنابوليون ، ولو رجعوا إلى ذخائر الأدب عند العرب ، لوجدوا ثمة شاعراً عربياً مجهولا سبق بطل الافرنسيين إلى ذلك المعنى بقوله :

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتّتْ
فتش عليها تجدها من النساء تأتت

ولعل صاحب هذا الرأى كان من أعداء المرأة على نحو مافعل بعض ادباء الغرب وشعراء العرب في الأيام الخالية ، او على مثال

مايفعل في زماننا توفيق الحكيم الكاتب المصري المشهور بعداوته المصطنعة للمرأة ،التي لولاها لما ابدع في فنه، ولما اوحت إليه اشتات الفكر وروائع الأدب ، ومثل هذا المعنى كثير في اشعار العرب القدامى والمحدثين ، وقد نظمه أديب من هؤلاء في قوله :

إن حادث يوماً اهمك شأنه وجهلته فابحث عن النسوان
إني رأيت الشر إلا قله منهن مصدره على الانسان

لو غاص اعداء المرأة الألداء ، او المتظاهرون بالعداء الى اعماق الحقيقة والواقع ، وتجردوا من كل ضغينة وبغضاء ، لما جعلوا المرأة موضع همزهم ولمزهم في كل حين ، ولآمنوا ببراءتها احيانا مما يصمونها به ظلماً وعدواناً ، وحاشا ان ازعم ان المرأة معصومة من الشر ، كاملة في سجاياها ونوازعها لاتصدر عنها نقيصة ولا دسيسة ، فأدعى انها ملاك من الملائكة ، فكم بين النساء من حية رقطاء وداهية شمطاء ، تحوك الفتنة وتصمى بالرزايا ، كامرأة العزيز التي جنت على يوسف ، فلبث في السجن بضع سنين ، وهذه المرأة نفسها لو عصمها العزيز من جمال يوسف ، لكانت في نجوة من هواها الأثيم .

ومن العجب ان تتعالى اصوات الرجال من حماة الشريعة والقانون ، ورعاة الأسر والبيوت ، في بلاد الشرق والغرب ، بشكاية النساء وتحذر طائفة منهن في مهاوي الزلل والخطيئات ، وهم المسئولون عن خيرهن وشرهن ، غير انهم يجهلون او يتجاهلون انهم كانوا مذ كانت المرأة ، سبباً في صلاحها او فسادها ، في سعادتها

او شقاوتها ، ولو استنطقنا الحدثان لسمعنا ان اكثر فجائع الدهر التي حملت المرأة اثقالها ، وباءت بالملامة فيها كان سببها الرجل ، فهاتيك المرأة التي سلكها الزمان بالخبيثات الآثمات ، وهمّ برجمها الراجمون لولا حكمة المسيح عليه السلام — من يدري انها لولا احبولة البغي التي اوقعها فيها احد الرجال ، لكانت احدى القانتات الطيبات .

ولنعد القهقرى إلى تخوم الأزل، حيث وسوس لها الشيطان ان تأكل من شجرة الخلد ،لتحظي بملك لايبلى ، فاذا بها تطيعه وتغري آدم بهذا الطعام، فيكتب الخالق على الخلق حياة الأرض، ويسقيهم بعد نصب العيش كأس الفناء ، وينطوي البشر جيلا إثر جيل ، يلومون حواء حين تدهمهم الخطوب والهموم،فيقولون لولا حواء...

وقد فاتهم جميعاً انها لم تكن هي علة الشقاء وإنما كان ابليس ، وضميره واسم إشارته في علم النحو ينمان على انه من طائفة الرجال لا من طائفة النساء، فهل من العدل ان توصم حواء بهذا البلاء ، ثم ترث بناتها من بعدها تركة هذا الملام ، ابد الأيام والأعوام ، فيقال في كل حين ، وفي كل محنة : فتش عن المرأة ...

مارأينا في قديم الدهر وحديثه امرأة اخترعت بندقية او مدفعاً ولا فتاة صنعت مدية او سهماً ، ففي الدنيا رجال سكبوا الحميم على الآمنين ، وصبوا سوط عذاب على الأبرياء ، لم تبلغ مبلغهم نساء في الجور والعدوان، وإن أوزار الحروب وفوادح الخطوب، مصدرها

ابن آدم ، لابنته فهو الذي ابتدع وسائل الدمار وإبادة الحيـــاة ، ومن مِن الناس لم يبلغه حديث ابني آدم ، إذ قتل احدهما الآخر طمعاً وحسداً ؟ فكانت اول يد تلطخت بالدماء هي يد الرجل !

سلو خبايا المفاسد ، ففي مطاويها بغايا ، هنّ ضحايا رجال ، لعل الواحدة تقول :

كنت عنده خادماً فأغرى واغوى ...

وتقول الثانية : أخرجوني فأخرجوني ....

وتقول الثالثة : خطفوني وتركوني ...

وسلوا محاريب العبادة ، وصوامع التقديس ، ففي اكنافها عذارى زاهدات ، فبهن من تقول :

— خانَ حبي ، وسحق قلبي ...

وتقول الثانية : سلبني مالي وسيطر على ميراثي ...

ألا أيها الرجال اللوامون ، فتشوا عن أنفسكم ، قبل ان تفتشوا عن المرأة ، هذه المفاتن الغالية والخلاعات الطاغية لمن تلوح وتبدو؟ وفيم تروح وتغدو ؟ أليست لمرضاة الرجال ؟

كيف ينشدون في المرأة عصمة وكمالا ، وهم لايحبون فيها مايرضي عقولهم دون نفوسهم ، وفيهم من ينهى عما يهوى بها إلى السوء ثم يأخذ بيدها إليه ويدلها عليه ، وفيهم من يؤثر المتبرجة المتهتكة على الحصان الرزان ، وفيهم من يستحي ان يماشي زوجه في الطريق ، إذا لم تكن كالدمية في زينتها

إنها أبداً مرآة لميول الرجال وأهوائهم الظاهرة والباطنة، وكيفما يكونوا يكُنّ، فهم إذا شاءوا جعلوها ملاكاً، او مسخوها شيطاناً

هي نبع فاشربوا منه سائغاً طهوراً، ولا تعكروه بالقذى او ترموه بالحجارة ...

هي قيثار فوقعوا على اوتاره الأنغام العذاب، التي تهدهد الآلام وتنشر الوئام والسلام.

فتشوا عن المرأة في تضميد الجروح، ومواساة المرضى، وإسعاف المساكين.

فتشوا عنها في الأمومة الرحيمة، فهناك اقصى غاية الجود والتفدية، تسهر لينام اولادكم، وتجهد ليستريحوا، وتفديهم بالروح مهما اساءوا.

فتشوا عنها في العزاء والوفاء، في الحنان والاحسان.

فتشوا عنها وهي أم الرسل والأنبياء الذين كانوا الهدى لضلال الانسان

فتشوا عنها وهي والدة الاطباء والعلماء الذين خففوا مواجع البشر، وثقفوا عقولهم وخففوا عنهم ...

فتشوا عنها وهي منجبة الابطال والعباقرة، الذين كتبوا لأمتهم صحائف المجد والخلود.

أعداء المرأة

أصر من الرجل قد وقع ، وقضاء قد حم على رأس المرأة . وكأن الدهر أبى منذ الأزل إلا ان يقطع اسباب المودة والصفاء بين الرجال والنساء ، فسخّر من غلاظ القلب والجسم من كاد لهن وتربص بهن ، وزعم متلطفاً أنهن شر لامفر منه ولا غناء عنه ، فأساء الرجل الى جنسه ، وإلى من خلقت من نفسه ، فكان كمن ضلّ وأضل . إذ كيف جاز في شرعة الحق والرجولة ، ان يخلق هذا الانسان الجبار عداوة بين الجنسين ، او في دنيا مخلوقين يكمل كل منهما الآخر ومذ بدرت من الطبائع بوادر الخصومة والتهكم هب نفر من الرجال وقد حسبوا أنهم يحسنون صنعاً ، فتنادوا إلى مناوشة النساء والغض من حسناتهن ، ليقال إن العالم يشقى بشرهن ويعيا بأمرهن . وأخذ المتنادون والأشياع يهتفون في كل جريمة وقعت او خصومة قامت : فتش عن المرأة ... ثم غدا الناقمون مباهين بعداوة النساء ، فروعت بنات حواء ، وفزعن الى أخواتهن متسائلات :

من الشاهر سيفه ، الكاشر عن أنيابه ، الناشر مخالبه ، يريد بنا الأذى ، وينوي لنا الردى ... ؟

فقلن هذا « أرثور » زائغ الفكر والشعور ، رفع صوته في الغرب ، يحذر من المرأة وينذر الناس بشقائهم فيها وذلك « التنوخي » الضرير ، نفث نقمته في أرجاء الشرق ، فودت له النساء الشقاء

والفناء . وخلف من بعد هـذين الناقمين الفاشلين خلف ورثوا عنهما المكايد والأضغان ، وصار إليهم حبل الماكرين ...

وبعد فما لامرأة اليوم حيلة بالأعداء الغابرين ، فقد ماتوا وخلوا للمشايعين التابعين تراث العداوة لها ! وكانت تحسب أنها استراحت من الاعداء ، فاذا هم اليوم خصوم ألداء ، يتداولون بينهم ذلك التراث المحموم

من هؤلاء الخصوم في بلاد العرب توفيق الحكيم الذي جدّ في عداوته للمرأة فطعن فيها ، ورماها بكل نقيصة في كتبه ومقالاته ، ثم ظهر بوادي النيل عدو جديد ، على ان أكثر هؤلاء الاعداء من المفكرين والفلاسفة ، ماشاع ذكرهم ولا ذاع صيتهم إلا حين تهجموا على النساء بالمثالب والتسفيه ، فاذا بطاعنهم تدور وتحور ، ويتردد صداها في كل مكان ، وينبسط مداها مع الزمان ، ويقبل على بضاعتهم الشامتون بالمرأة والغاضبون عليها ، فيشترون من تلك البضاعة المزجاة ويرتؤون آراءهم الفائلة ، وإذا بها ترن في المسامع وتطوف بالمجامع ، فيهتف التاريخ بأسماء : شوبنهور ونيتشه والمعرى والعقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم ...

ومن عجب أن يجور هؤلاء الأعلام على النساء بما يخالف التطور ويناقي الواقع ، ليكتسبوا من هذه المناوأة والمكابرة شهرة جديدة وصيتاً بعيداً . وطالما جار الثالبون على أنفسهم ، فتعسفوا وتكلفوا ، وكان خبطهم أعشى ، أليس منا أمهاتهم وأخواتهم ، وخالاتهم

وعماتهم ، ولم لاأقول زوجاتهم وبناتهم؟ ثم استغفر الله مما فرط من القول وزلّ به اللسان ، فان كفيف المعرة كفّ نفسه عن المرأة، ولعل له عذراً ، فلو كان كحل عينيه بجمال الغيد ، ولم يكن دميما لاجتاحت قلبه واحدة من النساء غيرت معالم اللزوميات، فلم يتهكم علينا فيها بالتائيات ، ولما أدارها معنا وقيعة سجالا وحرباً عوانا ، فان في كل بيت منها لسيفاً وسنانا . ولقد بنى أبو العلاء صروح شعره على ذم المرأة وما دل عليها ، وكان منها او إليها ، فالدنيا عنده أم دفر ، وهو أبداً ينحت أثلتها ويبري عودها ، معتقداً ان كل خطب فيها سببه المرأة، فهو هدام معطل ، لو أوتي قوة شمشون، وكان مسبل الشعر لدكّ بهن العالم وأقفر الوجود .

ومن يدري فلعل شوبنهور او نيتشه وسواهما من أعداء المرأة في الغرب والشرق ، إذ كرهوها وازدروها ، كانت وراء كل منهم امرأة افسدت عليه نعيم الحياة ، وسودت في عينيه بياض الدنيا ، فحسب الغدر او الكيد كله من شيم النساء . وإذا كان لهؤلاء الأعداء الغابرين معاذيرهم في الغضب على النساء وفي عهود كن مستضعفات ، فأي عذر للناقمين منهن في عصرنا ؟ وكأن هذه النقمة من بعض المفكرين في أيامنا خصومة منهم او دلالة عليهم، فاذا ركد لهم صيت او فتر من حولهم إعجاب اثاروا لأنفسهم رياح الشهرة بمقال يرسلونه، او رأي يقولونه ، في شأن المرأة ، فقذفوا بالباطل عليها ، ودعوا الرجال الى البطش بها ، وعدوا الحقوق التي تطلبها ضرباً من

الأوهام والأباطيل . من هؤلاء الأعداء نابغة مصر توفيق الحكيم الذي يجهر بعدائه للنساء في كل نهزة وسانحة ، ويسخر قلمه للسخر منهن ومن ثقافتهن ، وما كان هذا منه الا ألعوبة أدبية يلوح بها في وجوه الناس ليزيدهم لآثاره تقديراً ، وعليه إقبالاً ، ولعلهم كانوا كذلك بادي الرأي ، أما وقد عرفوا أفانينه ، فان « توفيقاً » أصبح لدى العارفين أديب تربص وانتهاز ، فمنذ عهد قريب دعا قومه إلى تعدد الزوجات ، وحين نشر الدكتور طه حسين كتابه « أحلام شهرزاد » ضاقت عين الحكيم عن تسريح النظر في هذه الأحلام التي صور فيها الأديب العميد « شهرزاد » في رداء من الحصافة والذكاء . ومن قبل نشر الأستاذ توفيق الحكيم فصولاً عرى فيها المرأة من مواهب الفن فزعم أنها لاتحسن إنشاء القصص التمثيلية ولا تستطيع أن تكون موسيقية تبتكر الألحان ، وقد فاته من أدبنا القديم براعة المغنيات في عصر بنى العباس ، وفي العصر الحاضر من أهل اللحون نساء في المشارق والمغارب ، أما الروايات التمثيلية فعهد العرب بها جديد ، ولننتظر فان الزمان لم ينفد أمده ، وما يزال الانسان حياً ، فان في مأتى الدهر نجوماً ستنجم يكون بينها مؤلفات للمسرح وموسيقيات . ومن أعجب العجب ان تكن عداوة الحكيم للنساء أشهراً لتكون وحياً جديداً للأستاذ عباس محمود العقاد ، فقد نشر هذا الأديب العظيم مقالين زعم فيها أن المرأة

لاتجيد من الفنون غير فن الرواية، وكأن هذا الفن في نظره أهزولة هينة على كل كاتب ، وقال إن المرأة ليست بشاعرة مبتكرة بل هي مقصرة ومكررة ، لأن الشعر ابتكار واقتدار ، وأنها لم تنبغ حتى فيما هو أقرب إليها وأحرى أن تتفوق به على الرجل وهو الرثاء ، وإذا كانوا يضربون المثل بالخنساء فانه ليس في ديوانها غير أبيات متفرقات في البكاء لاترتقي الى منزلة الشعر السيار ، إذ كله تكرير لمعنى واحد، ولا يصح أن يقال انه معنى من معاني القريحة والخيال. وقال العقاد : ان التصوير كالتمثيل ، والمرأة فيه غير مبدعة . ولم تعرف نابغة فيه خلقت صوراً من محض خيالها وتفكيرها، كما يتفق لنوابغ المصورين من الرجال . وهكذا رأينا هذا الكاتب الكبير يجرد المرأة من مزايا الابداع والاجادة حتى في الصناعات الخاصة بها ، كالطهي والوشي ، والزينة والخياطة ، فزعم أن الرجل يبذها فيها وينافسها ، ونحن نقول إن في عديد شاعرات الغرب قديماً وحديثاً ، وفي شاعرات العرب اللواتي - روى شعرهن أبوتمام وأبو نواس ، او اللاتي ينشرن القريض بلغة الضاد او بلغات أجنبية مايبقص رأي العقاد ، وفي الأدبيات المعاصرات من أحرزت جائزة نوبل التي ماأحسب الأستاذ العقاد يزهد فيها ، وفي النساء ممثلات كساره برنارد وراشيل ، ومصورات لايحصى لهن تعداد ، أليس فيما أشرت إليه حجة بالغة عليه ؟ ونحن لم ننس بعد مرثيته لفقيدة الأدب في الشرق الآنسة « مي » فعداوة العقاد إذن كعداوة الحكيم ،

وكلاهما أديب معزب (١) وعن النساء بمعزل، بل مادار لدى الأول بين يديه في صحن داره كما يذكر هو في كتابه «عالم السدود والقيود» غير خادمه الأمين، وما وقفت في مطبخه طاهية ولا جارية، بل لم تخطر في فناء بيته وحجراته امرأة يدعوها بأم أولاده، والحكيم يعيش متجافياً عن المرأة وقد آثر مرة إلفة حمار كما قال عن نفسه في كتابه « حمار الحكيم ». ويثور بالمرأة أديب آخر يمزح مزاحاً فيه حلاوة، وفيه مرارة، هو الأستاذ المازني الذي يتهكم على المرأة ويستهزىء بها في كثير من قصصه ومقالاته، حتى أن زوجته وبناته لايسلمن من سخريته وزرايته

وهناك أدباء كانوا لايؤثرون الجد كله، وإنما يقصدون الى تسلية القارىء بأحاديث يختلقونها، او ينفخون في حجومها الصغيرة حتى تبدو متضخمة بدينة كالذي كتبه الدكتور زكي مبارك عن المرأة حين قال: كان أبوه يجرب متانة حذائه الجديد برأس زوجته، وأن المرأة لايليق بها الا العنف والازدراء

وإني لأعجب لرأي علامة الشام الاستاذ محمد كردعلي (٢) في المرأة العربية كيف لانجده منصفاً لها حين كادت تقبل عليها وجوه الانصاف وطالما دعا الى تعليمها ونهضتها، بل نراه ماضياً على ما يشبه رأي الاستاذ العقاد في ان المرأة لم تنبغ ولم تبدع في علم او ادب ولاتحسن أمراً ولو كان من خصائصها الطبيعية كالزينة والطبي والخياطة

«١» نشرت مقالي هذا بمجلة « الرسالة » قبل زواج الاستاذ الحكيم «٢» المذكرات

وأحسب هذه الضروب من الأدب المستهزيء العابث بالنساء أصبح لدى معشر من أدباء العصر فكاهة الفن وطرفة التجديد ، وما المرأة في هذا الزمان إلا مستيقظة من سبات ، ناهضة من خمول وهوان، فعلام يحول أدباؤنا دون تحريرها ورقيها،ويباهون بالعداوة لها والزراية عليها ! وكان الأولى بهم أن يعالجوا مشاكلها ويتفقدوها في مجتمعاتهم ، ويجعلوا منها شريكاً في حياة كاملة طيبة ، وما بال هؤلاء الأعداء - وما جادت الأيام بأندادهم الا على هامات العصور - يسخرون أقلامهم للهدم والتحطيم ، وقد شرفها الله فأقسم بها ، وما كان مدادها ، الا ليشرق من سواده نور الحق والخير على بياض الأوراق ؟

ليتهم سخروها لرعاية المرأة ورفعتها ، ولسوف تأتي الأجيال القابلة فينظر أهلوها في آثار هؤلاء النافين على النساء ، فيرون ان بعضهم كانوا هازلين عابثين ، مباهين بأدب لحمته وهم وخيال ، وسداه زهو وتحريف، ينتزعونه احياناً من الأساطير ، ويرددونه في الأدب الحديث باسم الفن والطرافة لقوم حرام عليهم اللهو والهزء ، والعالم جاد في تقويم المجتمع وبناء الأجيال ، ولو كانوا يريدون للنساء خيراً ونفعاً لأنشأوا لهن ادباً يبصرهن بالخير والحق ويعصمهن من الزلل ويجمع قواهن في قوة الرجال ، فما ينبغي ان يتخلفن عن مسايرتهم في ركب الحياة

يقول الراسخون في العلم والنافذون بأبصارهم الى عالم الغيب :

إن في حياة كل أديب امرأة كان لها أثر في نبوغه وإبداعه ، وهذا مارددده توفيق الحكيم منذ سنين : « فمن افواهكم ندينكم » ياأعداء المرأة،لولا نساء اظلمت عليكم قلوبهن فلم تدخلوها،لما كانت عداوتكم، وإذا دعوتم الى تحقير المرأة والبطش بها فان وراء دعوتكم تشفياً وانتقاماً ، فقد يكون الدهر ابتلاكم بأهواء الحسان او بلوتم زيوف النساء ، فتجافيتم عن الخوالص الصحاح،وقد ثبت بالعيان والبرهان، وفي شواهد التاريخ الأدبي والسياسي ان عداوة المفكرين للمرأة لم تكن لوجه الحق ، وقد قدمت في الكلام مايحقق هذا الرأي من التحليل النفسي ، حين نرد أعمال الانسان الى نوازعه الخاصة ومن هاهنا ينبغي لنا أن نحاسب أعداء المرأة الحساب العسير لأنهم قد أفسدوا المجتمع بآرائهم وأهوائهم ، وكان المجتمع منساباً في كل حين حسب توجيه الفلاسفة والمفكرين ، وكم من ضحية دسّ لها السم فيما كانت تطعم من الدسم .

واذا بحثتم ايها المنصفون تاريخ السرائر والنفوس،فلن تجدوا منذ حواء واحدة من النساء قد نصبت نفسها لعداوة الرجل ، ولو بحثتم عن اعداء النساء منذ آدم لوجدتم فيهم الكثير ، فخلوا عنكم ايها الأعداء ، وحسبكم تسفيهاً للمرأة وتجريحاً ،وعلاَم هذه البغضاء منكم والقطيعة ، فما العمر مديداً حتى يحتمل فيه الكدر والخصام ، ولا فيه صفاء يدوم لانسان .

محمد محرر النساء «١»

كان مولد « محمد بن عبد الله » مواساة إلهية للشابة المفجوعة في فرحة عرسها بموت زوجها بعيداً عنها ، فكان ميلاد اليتيم عزاء لتلك الأم الاسيفة المتلهفة ، وجده المحزون

ولد « محمد » في أعقاب دهر عصيب ، لف الشرق والغرب في ظلمات الجهل والطغيان ، بين قوم أحبوا المرأة وغلوا في غيرتهم عليها ، وبين آخرين متطيرين ، خيل إليها لشيوع الفقر والسباء عندهم ان المرأة سبب ذلة ومهانة لهم اذا فقدت حرمتها وكرامتها ، او كان السبي من نصيبها ، فوأدت بعض القبائل ولائدها ، وحرمت بعضها الانثى كل ميراث ، ولما طغى السفه والضلال كانت الاقدار تهيء من وراء الغيب عهداً جديداً ينبثق من الآفاق المقدسة ، لتغيير مجرى العالم وتعطي الانسان على الأرض حريته المثلى ، على يد النبي الموعود

لقد نشأ « محمد » وشب في تلك البقعة التي كان فيها أمر المرأة حرجا ، وكان من صنع الأقدار السماوية ان تتمازج حياته بحياة النساء منذ ابصر النور ، ففي طفولته تعهدته مرضعته « حليمه السعديه » بحنان الرؤوم وكانت ترقيه على عادة العرب من عيون الحاسدين ، اذ كان محمد طفلا لا كالأطفال ، ثم حضنته « بركة الحبشية » التي شهدت مولد

« ١ » الكلمة التي ألقتها المؤلفة في حفل « معهد النجاح » الذي تتعهده بالعناية والتوجيه منشئته السورية العظيمة السيدة ماجدة جزار قرينة المربي العلامة الاستاذ هاشم بك الفصيح مدير التعليم الثانوي بسوريا

يتمه فسعدت بحضانته ، واستروح في عطفها ورفقها روح أمه آمنة ، فكان يقول عنها : هذه أمي بعد أمي ... هذه بقية أهلي

وامتلأ شباب محمد بحصافة الفكر ، وطهارة اليد واللسان ، فكان فتى الفتيان ، له منهم نضارة العمر ، لكن احلامه ليست كأحلام الشباب ، بل كانت رؤى النبوة الموعودة ، وبشرى البعث الجديد

كانت المرأة التي فتحت لمحمد باب المجد « خديجة بنت خويلد » التي أكرمها الله بأن كانت خير زوجة لخير زوج ، مسّت قلبه بالحب والاحسان ، وشدته بالأمل والايمان ، وكان بينهما من تفاوت السن وتجاوب الروح ماجعل « محمداً » سعيداً برعاية المرأة التي فضلته على أفضل أهلها وعشيرتها ، فمضى في حياته الجديدة معتزلا متأملا ، بين زهادة وعبادة ، وبين تحفز وتأهب للانقاذ والتحرير ، حتى رف عليه نور الحق وتلقى وحي السماء ، فلم يجد الا زوجته الحنون مفزعاً لخشيته ، فكفكفت من حيرته وعبرته ، وآمنت بنبوته ، قبل ان يؤمن بها أقرب أهله وصحبه من الرجال والنساء

كان هذا الوحي الالهي ايذاناً من الحق بزوال عهد بغيض شقيت فيه الانسانية وضلت سواء السبيل ، فقد بعث محمد رحمة للعالمين ، وأنزل عليه القرآن معجزة باقية وشريعة خالدة لكل عصر ومصر ولكل فرد او جماعة من كل شعب وأمة ، فنادى للحرية والمساواة والاخاء ، لهذه الأقانيم الثلاثة التي علم الناس معانيها ، ودعاهم الى تحقيقها ، فكان سباقاً لأمتين عريقتين تنازعنا منذ قرنين

شرف السبق الى اعلان حقوق الانسان، وقد فات الأمتين الفرنسية والأمريكية فيما صنعت الاولى بثورتها العظمى ، وفيما جددت الثانية في الحقوق الانسانية ، أن «محمداً» عليه السلام كان اسبق منهما ومن «المنظمة الأممية في القرن العشرين» الى ابداع تلك الحقوق بألف عام ونيف ، فهي دستور عادل كامل ضمت أحكم المناهج الديمقراطية ، وأقوم المنازع الاشتراكية في عصرنا ، وفيها الدعوة الكبرى الى تحرير المرأة وإنصافها ، فقد أنزل الله فيها ماأنزل ، وقسم لها ماقسم ، ودلت سور القرآن على فضلها ، وما ينبغي لها من تقديم وتكريم

لقد رفع شأنها بنتاً وزوجاً وأما ، بعد أن كانت لاتعد شيئا كما قال عمر في الجاهلية ، فشرع لها مالم تأت بمثله أحدث الشرائع والقوانين في ارقى الأمم الغابرة والمعاصرة في الشرق والغرب ، إذ ساوى بين الرجل وبينها في الحقوق والتكاليف ، الا فيما اقتضت الحاجة والضرورة ، فاذا رجحت كفة الرجل في شأن ، عوض على المرأة مايوازيه فيما يوافقها من أمر آخر

و كأن محمداً حين جاء بهذا التشريع الرائع شاء ان يعلم الناس ان بناء الحياة لايرفع الا بتعاون الجنسين ، وخصائص الفريقين ، فان الأمة التي تهمل المرأة وتجعلها لهواً ومتاعاً ، او تكون فيها مغلولة الروح مسلوبة الحق والحرية لهي أمة لاتستحق الحياة والبقاء في ذلك العصر المظلم الظالم ،كانت المرأة الغربية تعاني أشد مما

عانت المرأة العربية ، قبل عهد « محمد » إذ كانت لدى قومها رجساً من عمل الشيطان ، فحرموا عليها الطيبات ، وصدوها عن الضحك والحديث ، وغلوا في عدوانهم وامتهانهم ،فوضعوا على فمها قفلاً من حديد، وقد أمعنوا في ضربها كلما احسوها تتنفس الصعداء ، او ترفع صوتها بالشكوى

وتفنن الرومان في حرمان المرأة وازدرائها ، ثم قصروها في عهد الترف والبطر على الغواية والفحشاء ، وكذلك فعل الغول فكانت المرأة عندهم من سقط المتاع

وهل كان ثمة أفظع في الطغيان والجور على المرأة مما طلع به على الناس مجمع « ماكون » بفرنسة في القرن السابع الميلاد ، إذ تنادت هيئته للبحث في خلقة المرأة،وهل هي انسان؟ غير ان بعض المؤتمرين ترفقوا بها بعد جدل ونقاش ، فقرروا انها إنسان ، لكنها خلقت عبدة للرجل !

فكانت رسالة محمد أعظم انقلاب شهده العالم لتحرير المرأة في الانسانية جمعاء ، مما عجز عنه جبابرة الفكر ، ولم يخطر على بال فلاسفة الاغريق ، ونوابغ الرومان في القانون والتشريع

ولم تكن هذه الحرية التي دعا اليها محمد طليقة شاردة، بل كانت قائمة على الحق والعلم والأخلاق التي إنما بعث ليتممها ويعممها ... ولقد حررت هذه الحرية المثلى روح المرأة وبصرتها وهذبتها،فكانت المرأة العربية تؤثر المنية على الدنية، وتجوع الحرة ولا تأكل بثديبها

وياعجبا لهذا الشرع الجديد الذي حاط حرمة المرأة بالحصانة والأمانة ، وقد انبسطت يد الله فوقها تبارك عليها وترعاها وتحميها في مستقبلها من بغتات المستبدين وانحراف المتقلبين

رأى الرسول عليه السلام أن العلم يعلم الحرية الصحيحة فجعل طلبه اينما كان ،فريضة بالتساوي على الرجال والنساء ،فبأي المدارس تعلمت المرأة في عهد الرسول ، وفي العصور التي أقبلت بعده فتفتحت فيها العبقرية النسائية ، وشعت على دنيا العرب بالمرح والجمال .

كانت مضارب العرب وبيوتهم ومجالسهم مغارس علم وأدب ، ومبعث وعي وتحرر ، تعلمت المرأة فيها وتأدبت وتفقهت في الدين، وكان النبي عليه السلام أول معلم لها علمها مالم تكن تعلم حتى حفظت القرآن وروت الحديث ، كما روت الأشعار والاخبار وألمت بالطب والفلك ، والأنساب والآداب ، وعانت التشريع والسياسة، فقد شرع الرسول لها في دستوره الحكيم ان تتعلم ماشاءت، ولم يكرهها على ناحية من المعرفة دون ناحية ، ولم يقل لها : هذه تلائم طبيعتك وحاجتك ، وهذه تصرفك عن أنوثتك وأمومتك، بل ترك لها الحرية في ان تتعلم ماشاءت ، فان المتعلمة الذكية تفيد من أية ناحية من نواحي المعرفة ، لاسيما إذا وافت فطرتها وحاجتها ، ولاءمت حياتها ووجهتها وقد اختص الرسول النساء بمجلس كان يختلف اليه حيناً بعد حين لتعليم المرأة وتبصيرها ، حتى اجاز لعائشة ام المؤمنين تلميذته الأولى أن تكون بعد حين مرجع الثقات والأئمة، من المحدثين

والفقهاء، وقد منحها ثقة هي أغلى وأسمى من كل شهادة على مصطلح عصرنا، حين قال لصحبه وذويه: خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ...

وتمثلت، معاني الحرية التي أرادها الرسول للمرأة في كثير من مظاهر الحياة والمعاملات، تمثلت في ايمانها برسالته ودعوته، وفي تأييدها لجهاده وجهاد المؤمنين، ففي حومة النضال والقتال ومن خلف الزحوف والصفوف، كانت المرأة العربية تسير مع الرجل، تثير الحمية والاباء، وترقأ الدماء، وتروي الظماء، وقد تضرب العدو بسيفها حتى تلقى حتفها شهيدة موعودة بأجر المجاهدين، فلم يقل محمد للمستبسلة المناضلة: إلزمي بيتك، وتخلفي للزوج والولد، وحسبك ان تعكفي على مغزل ومطبخ ... وهو القائل لمن سألته عن جهاد الرجل، فأجابها بأن هذا الجهاد ليس بزائده مثقال حبة عن المجاهدة في الحرب او في السلم لوجه الله، وقد امتلأت صفحات التاريخ بأنباء المجاهدات، من عائشة بنت الصديق، وأم سلمة، وأم سليم، ورفيدة الاسلمية، ونسيبة المازنية، وخولة الكندية وغيرهن كثيرات، بل ان محمداً لم يتجهم للمرأة حين أجارت أسيرين حمتهما «أم هانيء» بنت عمه أبي طالب من أخيها علي كرم الله وجهه، وقد عارض صحبه حماية ام هانيء للاسيرين المستجيرين بها، غير ان الرسول الأعظم رد هذه المعارضة قائلاً:

دعوا أم هانيء، فنحن قد أجرنا من أجارت، وأمنا من أمنت، وان لها حقاً فيما فعلت ...

وفي البيعة ، كانت المرأة تبايعه أسوة بالرجل ، ولم يكن يأنف من لقائها او استماع شكاتها ، إذا كانت مغبونة او معذبة ، فاذا سمع حجتها وصراحتها ، تلفت نحو صحبه ببدي البشاشة والرضا

وهل ثمة حرية شرعها الاسلام للمرأة ادل على تحررها ، من احترام رأيها في اختيار زوجها ، لقد أبى الرسول على الرجل ان يسوم المرأة في نفسها ، او ينازعها حقها في الاختيار ، فليس لأحد ان يغصبها في الزواج ولو كان محمد نفسه ، فهذي بنت عمه أم هاني ، مات عنها زوجها ، فخطبها الرسول وردته قائلة : لأنت أحب إلي من سمعي وبصري ، لكن بنيّ صغار ، وحق الزوج كبير ، فأخشى ان أقبلت على زوجي ان اضيع شأن الأولاد ، وان اقبلت عليهم أخشى ان اضيع حق الزوج ، فلم يغضب الرسول ، بل قال فيها وفي امثالها : خير نساء ركبن الابل نساء قريش ، أحناهن على ولد في صغره ، وأرعاهن لزوج في ذات يده

ولم يحظر على المرأة حضور المجتمعات العامة التي يعقدها الرجال للشورى والنظر في شؤون الحياة وخدمة الأمة ، إذ كانت المرأة تبادر الى شهود تلك المجتمعات أيام محررها ومعلم الحرية وشارع العدالة الاجتماعية ، ثم في عهد خلفائه الراشدين حتى المتشددين المتحرجين منهم ، ويح عمر حين بغتته تلك المرأة الجريئة الصريحة وهو على منبره ، يبصر قومه في أمور الدين والدنيا ، وحين انتهى الى طرف من التشريع النسائي ، وقفت المرأة في الحضور تنقد عمر الخليفة

العادل ، وتقوم ماأعوج من رأيه ، فلم يغضب عمر وإنما قال : أصابت امرأة وأخطأ عمر ...

وإن كان في قوله امرأة ، كثير من الغضاضة على النساء !

ومن هذه المساواة التي نادى لها الرسول كفاءة المرأة الرشيدة في شؤونها المدنية دون استئذان من زوجها او ولي أمرها ، مما لم تحظ به المرأة الغربية في ارقى الأمم المعاصرة

واذا كانت المرأة قد تساوت والرجل في حق البيعة ، فان نقلة من هاتيك العصور الى يومنا هذا ، تفتح امام المرأة آفاقاً أغلقها الرجل في وجهها ظلماً واستبدادا ، حين اهمل ماأراد الشرع لها ، فلم يطبقه على وجه الحقيقة والعدالة ، وترتفع الاصوات النسوية في الشرق والغرب بالتماس التسوية في الحقوق والتكاليف ، ويردد صداها انصار المرأة حتى يستجاب بعضها او كلها حسب النظم الاجتماعية والأوضاع السياسية ، ويتاح للسوريات المتعلمات وهن في عهد تحرر واستقلال ان يأخذن حق الانتخاب ، وبقيت لهن حقوق كثيرة لايزلن دؤوبات لأخذها ، غير متمردات على الفطرة ، ولا حائدات عن الغاية المثلى

ويفتح مجال الحرية المرجوة أمام الشقيقات العربيات ، اللاتي طالما أهبن بأحرار الرجال الى نصرة المرأة في حقوقها المهضومة ، وبوادر الأمل تلوح اليوم للمصريات واللبنانيات يؤيدهن العلم والقانون

ولئن أقر الشرع حقوق المرأة واعترف الرجل بها في صدر الاسلام وبعده ، على الرغم مما في طبعه من الأثرة والاستبداد ، فان

هـذه الحقوق بقيت في كثير من العصور حتى يومنا هـــذا مطوية كالقوة الكامنة التي تنتظر الارادة والانصـاف ، فهي موجودة مفقودة، موجودة في صميم الشرع وفيما أثر عن الرسول عليه السلام، ومفقودة لان الرجـــل المشرع اهملها وهضمها ليستأثر بها وحده ، متبجحاً بالحرية والمساواة اللتين جعلها الخـالق من اجل الجنسين ، فالمرأة العربية اليوم لاتطالب بحق التسوية المطلقة ،وانما تبحث عن هذه الحقوق المفقودة لكي يضعها المشرع المنصف موضع النفيذ والتطبيق، وفاقاً للمصلحة العامة واستجابة لروح العصر وضرورة الحاجة

فلولا « محمد » الذي رفع مشعل التحرير والخلاص في ظلمـات الانسانية لبنير للرجـال والنساء على السواء لبقيت المرأة متلفعة في غيبوبتها الأبدية

فاذا ذكرت النساء « محمداً » في مولده وهجرته، وفي رسالته ودعوته ، فليذكرن المحرر الأول ، الذي عطف على المرأة وأنصفها من اجل كرامتها الانسانية ومكانتها الاجتماعية ، لقد حماها من كل ضيم وحرمان ، وترك من بعده جنـاح المودة والرحمة منبسطا على دنياها،حتى إذا كان اليوم الموعود رجاءته الصفوف خلف الصفوف، بالزحمة والزحوف ، وجد نساء لايحصيهن عدد غير الله ،هاتفات باسمه في المحشر ، متشوفات الى رؤية المنقذ الحبيب

نهضة المرأة السورية

وضعت الحرب العالمية الأولى اوزارها ، جلا الترك عن **حين** بلاد الشام، فهب السوريون يفركون اعينهم مشدوهين، ويتنفسون الصعداء مستروحين ، وكأنهم نهضوا من سبات ، او ردوا الى الحياة بغتة او بعد غيبوبة ، فقد انجاب عن بلادهم ظل العثمانيين ، وكان طويلا ثقيلا ، عانوا في خلاله الحرمان والهوان ، وظلوا سادرين في امانيهم ،مكفوفين عن مطامحهم وحاجاتهم لايجدون متنفساً للحرية والخلاص.

وكانت المرأة السورية تشارك الرجل في همومه ، وتتمرس من وراء حجابها بالخطوب والآفات ، وكان صوت واحدة او اثنتين من الأنوفات الغضاب ،يضيع في غمرات الحرب ،وأنات التظلم والاجحاف ، وقد حجبت صلصلة الوعيد والتهديد جهود النساء ، فلم تظهر في غير النجدة والاسعاف ، غير ان الوعي الوطني اخذ يدب في عالم المرأة ويتسرب الى شعورها ويكشف عنها حجاب الخمول والاهمال .

فلما دالت الأيام ، وتفتحت الأعين في سورية على عالم جديد في حياته وثقافته ، ترددت الصيحات لرفع مستوى المرأة ، وتعليم الفتاة ، وكانت الثقافة النسوية يومذاك زهيدة محدودة ، والمتعلمات معدودات ، يرميهن المتزمتون بالنظر الشزر ، ويستصرخون الدين لخروج النساء على ماألفوا من تقاليد وعادات . ومن كان راضياً

عن وعي المرأة ويقظتها ، والتماسها اسباب الثقافة والاصلاح ، فانه لم يتحيز الى دعوتها ، او يتنكر للمتشددين المطيرين ، وانما وقف من بعيد يرتقب ويتطلع ، ويرصد الحركة الجديدة ، فبقيت المرأة السورية تناشد وتجاهد ، وتدعو الى التحرر والتبصر ، وتفهم التبعات وإعداد العدة للمستقبل المنشود ، على ان اليقظة الاجتماعية في ارجاء البلاد السورية ، كانت تردد الدعوة لرفع شأن المرأة وتعليمها فاستجاب الناس لتلك الدعوة على اختلاف طبقاتهم وبيئاتهم ، ورفدتها الحكومة ، فأسست للبنات مدارس ثانوية ودوراً للمعلمات ، كانت فيها الفتاة السورية اسبق من أختها اللبنانية الى إحراز البكالورية الرسمية والثقافة الوطنية ، كما أوفدت وزارة المعارف السورية - في بعثات علمية - بضع فتيات الى الغرب ثم الى مصر للدراسة الجامعية والعالية ، وكانت اسبق المبعوثات هي الرياضية المرموقة السيدة بشرى قدسي مديرة دار المعلمات بدمشق

وكانت الجامعة السورية تقوم في تلك الردحة بتدريس الطب والحقوق والصيدلة ، فأقبلت عليها الفتيات السوريات أسوة بالفتيان ، ولقين من الأساتذة عطفاً وتشجيعاً ، وكان القوم بين عجب واعجاب حين خرّجت جامعة دمشق الطبيبة الأولى لوريس ماهر ، ثم طبيبتين من أسرة عريقة هما السيدة منيرة العظم خياط والآنسة برلانته العظم ، كما خرّجت من الحقوقيات عدداً كبيراً ، كان يزداد عاماً بعد عام ، على ان اول فتاة سورية حملت

شهادة الحقوق في فاتحة هذه النهضة هي السيدة الموهوبة بوران طرزي التي مارست المحاماة ودلت على نبوغها واقتدارها في عملها وفي ثقافتها الرفيعة

وكانت تقاسمها هذا السبق السيدة المفكرة فاطمة مراد كريمة العلامة الشيخ سعيد مراد استاذ المجلة العدلية إبن تأسيس الجامعة السورية

وفي طليعة الخريجات بالحقوق منذ عهد قريب فتاة نابغة رصينة ، كانت أمنيتها المحببة العكوف على العلم الطبيعي وتجاريب المختبر ، وكأن بها ظمأ الى كل معرفة ، فقد جمعت بين الثقافة العلمية والثقافة الادبية والقانونية تلك هي الآنسة جهان الموصلي ، ومن زميلاتها المثقفات الحصيفات الآنسة بديعة أورفلي ، وكلتا الآنستين تمرست بالتعليم والادارة والتوجيه السديد في الحركة النسوية الراهنة .

ولما اظل البلاد السورية عهد جديد تنسم فيه أهلوها الحرية والاستقلال ، اتسع نطاق التعليم بجميع الوانه وفنونه ، واتسعت بقعة الجامعة السورية ، فتنوعت فيها الدراسة العليا والجامعية ، إذ أسست فيها كليتان جديدتان إحداهما للآداب والثانية للعلوم ، والى جانبها معهد عال للمعلمين والمعلمات ،وقد وجدت الفتاة السورية بغيتها في هذا المعهد وتينك الكليتين ، كما ازداد اقبال الفتيات على كليتي الطب والحقوق، حتى جاوز في كل منهما المائة ،على ان هذا الاقبال على درس الحقوق ، لم يكن من اجل ممارسة المحاماة لدى

أكثر الفتيات ، بل كان وسيلة لغاية مادية تتعلق بالوظيفة ، وقد صرح بهذا الرأي وزير المعارف الاسبق ، أديب سورية ونابغة الشباب الدكتور منير العجلاني

اما نهضة الادب النسائي في سورية فكانت سباقة لنهضة التعليم ، وكانت مقصورة على افراد قلائل ، وطالما كان امثال هؤلاء في كل امة يمتازون باستعداد خاص ومواهب ذاتية ، قبل ان يكون في الأمة تقدير فردي او جماعي ، وفي سورية كما في غيرها من بلاد العرب سيدات وفتيات هن مثقفات ومتأدبات ولكن ، بغير لغتهن ولقد ألمت بعض السوريات بآداب غربية الى جانب ثقافتهن العربية فتتبعن الحركة الفكرية في العالم وأقمن في ميزان الاعتدال ، متمسكات بالطابع الاصيل والعروبة المثلى كالآنسة وجيهة جزار وشقيقتها السيدة ماجدة جزار فصبح والسيدة إنعام عظم داغستاني والطبيبة منيرة عظم

وفي الوعي الفني استجابت المرأة لفطرتها وطبيعتها ، فشدت طرفاً من الفنون التي أتيحت لها ، فمارستها في بيتها ، غير انها لم تظهر فيها عبقرية او مبدعة كما ظهرت المرأة المصرية واللبنانية ، ولو اننا في سورية نعنى بالثقافة الموسيقية والتصويرية ، لكان للموهوبات السوريات شأن اي شأن في هذا المضمار

وقد لمعت في فاتحة النهضة النسوية كرائم الواعيات الراقيات من الأسر الرفيعة ، وكانت زعيمة الحركة الاولى السيدة العظيمة نازك عابد ، فقد سعت الى الوعي النسوي الجديد وانشأت مجلتها

« نور الفيحاء » في عهد « العروس » وأسست مع صواحبها مدرسة لبنات الشهداء ، شهداء العدوان التركي ، وقامت في ذلك الحين بجهود باقية وطموح مرموق

وقد يكون «النادي الأدبي النسائي» في دمشق اسبق جمعياتنا الى الوجود فتكون الحركة الأدبية النسائية في بلاد الشام مدينة إلى نشاطه الأول والى جهود هيئته ورئيسة الجمعية هي الآنسة الفضلى سارة مشاقة

ومنذ عشر سنوات او تزيد انشأت المربية الكبيرة السيدة نديمة المنقاري مجلتها « المرأة » في حماة ، بلد العاصي والنواعير ، ثم احتجبت مدة وعادت الى الصدور في دمشق ، فظهرت بحلة طريفة ، لتكون صورة للنهضة النسوية الحديثة ، غير انها فوجئت بالتوقف ، وليس هذا بمستغرب ، لان المجلات الفنية والصحف الادبية لاتعيش طويلا في بلاد الشام

وتهتاجني الذكرى الحموية ، فأنوه بأثر المفكرة المتحررة السيدة مسرة كيلاني شهاب ، إذ كانت من الرائدات السابقات اللاتي اسهمن في النهضة التعليمية والاجتماعية بسورية

وما تذكر حماة حتى يلمع بالخاطر شعاع حمص الذي اطل على سورية وانجب نسوة طلعن بالنور والخير والمعرفة وهن في حجاب الامس وظلال البيوت ، منهن النبيلة المثقفة « عدوية الأتاسي » وسواها من ربات الفضل المعاصرات اللاتي مايزال نشاطهن محصوراً في آفاق حمص الجميلة

كل هذا من نهضة المرأة كان يمضي على رسله ، والشعب السوري في غلاب ونضال مع الأجنبي الغاصب. يصطرعان ويتنازعان، وكان عبء المناوئة والطغيان قد ارسى على كواهل الرجال ، وضاقت به النساء ، فهبين غاضبات متأبيات ، يشددن عزم الأبطال ، وقد فعلن أفاعيلهم في الثورة السورية ، فكن اشبه بنساء الحرب الطروادية .

وظهرت الجمعيات النسائية في السوانح الوطنية والقومية ، وكانت تضم نخبة طيبة من كرائم النسوة وفضليات الفتيات . غير ان هذه الجمعيات كانت متقاربة الخطط والغايات ، واعضاؤها هن انفسهن في جمعية او اكثر، وقد دعين لسماع محاضرات علمية وادبية، غير ان المحاضرين كانوا رجالا ، فارتأى المجمع العلمي العربي بدمشق ان يدعو بعض المدرسات والمثقفات لالقاء المحاضرات على النساء

وقد استطاعت بعض هذه الجمعيات ان تمثل المرأة السورية في المؤتمرات النسائية التي عقدت بمصر ودمشق ولبنان ، بيد ان هذا التمثيل لم يدرك رضا الناس، لانه لم يمثل المرأة السورية على حقيقتها ولم يوحد كلمتها. بل كان مرتجلا او مفروضاً ولو لم يكن في هذه المؤتمرات من خير وفائدة سوى التعارف والتقابل بين الشرقيات والغربيات وتداول الرأي بين العربيات على اختلاف الديار والامصار لكفاها فخرا

وغير خاف على الملأ الواعي ان العاملات في الجمعيات النسوية يختلفن في الظاهر والباطن ، ففيهن المخلصات في جهودهن لوجه الله والوطن، ومنهن المستغلات لكل بادرة وسانحة، والمصطنعات لكل

عهد واتجاه ، على ان اكثر هذه الجمعيات جهداً ومنتوجاً هي جمعية «نقطة الحليب» التي تنهض بناحية من نواحي البر والاسعاف لاينهض بها سواها، فترعى الأطفال الفقراء لاسيما الرضّع منهم، فتمنحهم المقادير الكافية من اللبن والغذاء ويتعهدهم الاطباء في دار الجمعية بالمعاينة والعلاج ورئيسة هذه الجمعية هي الزعيمة الجليلة السيدة زهراء العابد ، وفي طليعة القائمات بهذه المهمة الانسانية الآنسة الممتازة فاطمة دياب

وقد أسست جمعية « خريجات دور المعلمات» داراً لكفالة بنات الشهداء ، شهداء العدوان الفرنسي الأخير ، ترعاهن فئة مثقفة من المدرسات البارّات ، لايتركن سانحة من السوانح في بذل المجهود للعناية بهؤلاء اليتامى ، وتوفير المواساة والترفيه لهن ، وتقوم هذه الجمعية النسوية من حين لآخر ، بمحاضرات علمية وادبية تدعو إليها طائفة من المثقفين والمثقفات، ورئيسة الجمعية هي المربية الكبيرة المتحررة السيدة منيره علي المحاثري، من رائدات الفكر النسوي بسورية .

وجمعية الهلال الأحمر فروع نسوية في انحاء البلاد تقوم بجهد كبير في مكافحة كل وباء وبلاء، وقد ظهر نشاط السيدات فيها إذ كن مثالاً للتضحية وتحقيق النظام والاخلاص

وفي دمشق ، تنادت منذ سنوات بعض المثقفات والمعلمات من ذوات الفكر والتقدمية ،الى تأسيس ندوة للمرأة، وضعن لها أهدافاً جديدة ، لم تستهدفها بقية الجمعيات النسوية فكانت الندوة بخطاها واتجاهها مشبهة عندي « نادي سيدات القاهرة » بمصر ، ولا تزال

هـذه الجمعية الثقافية ساعية الى إنشاء مكتبتها وإقامة محاضراتها واستقبال الزائرات العالميات اللاتي يفدن من الشرق او الغرب الى دمشق، فضلا عما تقوم به الندوة من بر بالموهوبات الفقيرات من الطالبات إذ تُعِدّ لهن في كل عام ما تيسر من الكساء وأدوات الدرس والتحصيل

وهيئة الندوة تضم نخبة ممتازة من زهرات المجتمع السوري فيهن السيدات إلفة عمر باشا إدلبي، وفلك دياب دسوقي، وبلقيس وريّة كردعلي ونعمة دياب، وغيرهن من الفضليات ورئيسة الندوة الآنسة جهان موصلي

ولا تقتصر هذه النهضة على دمشق فحسب، ففي كل بلد سوري يشع الفكر النسوي الجديد، وتتنافس السيدات والفتيات في خدمة الثقافة والانسانية، ففي حلب الشهباء تمضي بصمت وتواضع جمعية المشاريع الخيرية النسائية الى غايتها النبيلة في خدمة المجتمع وإسعاف المرضى والمساكين والوالدات، ومن ألمع العاملات في هذه الجمعية وفي كل حركة فكرية ووطنية السيدة أنيسة حميد باشا من ذوات المروءة والادب في حلب

والمرأة السورية في طويل جهادها ومختلف عهودها لم تعرف من الرجال نصيراً وقف قلمه على رعايتها والذود عن حقها ونهضتها، كما اتفق للمرأة المصرية والعراقية واللبنانية، ففي بلاد العرب اليوم وبالأمس القريب والبعيد، رجال دعوا بأقلامهم وألسنتهم الى تحرير المرأة وتقدير رسالتها وتأييد قضيتها، على ان الانصاف يقتضي ان أنوه بفضل الكاتب المجدد الاستاذ سامي الكيالي بحلب الذي ملأ

صفحات من مجلته «الحديث» بآثار المرأة ، وقد لقيت منه الأدبيات الشرقيات تشجيعاً وتعزيزاً، فهو حفي بمواهب المرأة العربية عامة والسورية خاصة ، متتبع لجهودها ومساعيها ، ويرجى من الجيل الصاعد ان يكون خير نصير للسوريات،في هذا العهد التقدمي الطامح

كذلك كان تقدم المرأة السورية في وعيها ورقيها ، ولقد ساير هذا التقدم الأيام التي مرت بها ، ولبى حاجة الجيل ، وصار في عداد الجمعيات النسائية عدد موفور من المثقفات والمعلمات، بعد ان كانت مقصورة على ربات الوجاهة والثراء ، غير ان نشاطهن بقي محدوداً او محصوراً في نطاق ضيق، وان كن يشعرن شعوراً عميقاً بضرورة التجدد والتزود لتحقيق غاية فكرية او اجتماعية ، والتشوف الى آفاق جديدة تطمح اليها المرأة في نهضتها . ولعل السبب في هذا التقصير ان أثرة الرجل ماتزال تأبى على المرأة ان تخرج من عزلتها، فاذا قيض لها ان تخرج مسهمة في بعض مرافق الحياة راح الرجل المتعصب او المتزمت يصف منازعها الجديدة متهماً او متهكماً . ولو انه شجعها مخلصاً ، وبصّرها بالخير ناصحاً ، لرأى من سعيها الصامت الصادق،مايحمله على إقرار حقها،والاعتراف باقتدارها على الخدمة العامة

وإنها لبادرة حميدة من وزارة الاقتصاد الوطني في سورية ان تعين ثلاث فتيات من الحائزات لشهادة الحقوق في مراقبة العاملات بالمعامل والمصانع ونظام العمل الجديد ، وهذه الوظائف كانت وقفاً على الرجال ، وليس للفتاة السورية إلا ان تثبت الكفاية والحصافة

فيما يعهد به اليها ، لتبرهن للرجل على أنها تستطيع القيام بالأعمال التي تدخل في خصائصها وطاقتها ولا تخرج على طبيعتها ورسالتها

لقد شمل التقدم حياة المرأة السورية ، في بيتها ومجالسها ، في زيها وحديثها ، ولم تبق قعيدة دارها لاتخرج منها إلا الى قبرها ، فقد صارت تغترب في سبيل الثقافة والمعرفة ، وتتمازج بغيرها من نساء الشرق والغرب ، فأفادت من الاغتراب والتمازج ، إفادة مشوبة بالبهرج والتكلف ، ولو شاءت لآثرت التقليد والتجديد فيما يبقي عليها طابعها الأصيل وشعار بلادها ، على ان المحنة التي ألمت بفلسطين ألهبت شعور المرأة السورية متعلمة وأمية ، فكانت غضبتها للحق تعدل غضبة الرجل ، وسعيها الى التطوع والتبرع لايقل عما بذل الرجل من المجهود في هذه المحنة ، ولعل ذلك يعود الى عروبتها وحماستها ونهضتها الحميدة ، فتمضي قدماً الى أهدافها غير مترددة ولا منحرفة ، حتى تدرك المثل العليا في دهر العرب الحديث .

التقدم المرموق «١»

تهتاجنا الذكريات ، ويثيرنا ماضيها وآثارها ، فبقاع الارض ومعالم الوطن وصداقة الناس ، كل ذلك محسوب علينا ، مكتوب في خواطرنا وصدورنا ، وكل امريء في هذه الدنيا ، يحمل كتاب الذكريات ويدعوه الحزن او الفرح ، والبعد او القرب ، الى ان ينشر بين يديه من حين الى حين صفحات من هذا الكتاب ، فيعيد حياته سيرتها الاولى .

كذلك شأني ، ففي هذه اللحظات السعيدة اتناول هذا الكتاب السحري العجيب ، الذي لايراه غيري ، ولا يقرأ سطوره سواي ، فتنبعث بيروت في ماضيّ القريب والبعيد ، وأرجع بالسنوات القهقرى فأراني من ههنا اطل على مشارف الحمى ، وانطلع الى البحر والجبل ، فكل بقعة من هذه البقاع حبيب الى قلبي ، لان فيها منبتي ونشأتي ، وعليها تفتح الفكر وجدّ الجهاد ، فانا اليوم حين اسرح النظر في هذه الوجوه الغر من الطالبات ، ارى الصور المكرورة المعادة ، فيخيل الي اني ارى تلك الاسراب من تلميذاتي ، وذلك

« ١ » الكلمة التي ألقتها المؤلفة في مهرجان كلية البنات المقاصد الاسلامية في بيروت سنة ١٩٤٩ والكلية أكبر معهد وطني للفتيات تديره اليوم المربية الكبيرة الآنسة زاهية دوغان بما عرفت من أدب وتقوى ، ووعي ثقافي وقومي ، وقد كان من مآثر الفضل في هذا المعهد العظيم أن تولت تأسيسه وادارته السابقة السيدة العظيمة يسر فاخوري نقاش

الموكب من زميلاتي، واذا كان الخلود حليف العلم كما يقول الحكماء، وكانت المدرسة دارة لهذا التخليد، يمضي ربانها واساتيذها ومعلماتها، وتتجدد الازاهير في حديقتها كما تتجدد فيها مناهج التدريس والوان الثقافة، فان شيئا واحدا يبقى خالدا على الايام، متصل الاول بالآخر، والجميع يتعاقبون في خدمته وبذل العمر والفكر في رعايته ذلك هو التلميذة، فهي الخالدة التي لاتنقطع، والمتجددة التي لاتبلى ومن اجلها قام كل ذلك من معاهد ومناهج، واساتيذ ومدرسات.

وكذلك فاني اليوم ارى الجديد في القديم، والقديم في الجديد، وهذا برهان اكيد على ان الفتاة اللبنانية ماضية في سبيلها، ساعية الى اهدافها بشوق وايمان، وكيف لايواتيها المراد وقد وهب الله لها طبيعة ساحرة، وجبلا مهفهف النسمات طيب العبير، مفجر الينابيع ينسدل سفحه الأخضر الى بحر ابيض يقذف بالخير والطموح، واذا كان هذا الجبل الملهم الاشم ينفح بالشعر والعطر، والعذوبة والجمال، فليس بمستكثر عليه ان تكون فتاته ممتعة بالموهبة والذكاء، فيافتياتي العزيزات اللواتي يقام من اجلكن هذا الحفل الكريم، انتن سفيرات المستقبل، والثمرات بعد الزهرات، وما انتن اليوم الا واقفات على عتبة المجتمع، وغدا تندفعن اسرابا بعد اسراب وافواجا بعد افواج، الى حياة جديدة وآفاق مترامية، فتغمركن الايام بشؤونها وشجونها، وحينئذ يعوزكن العلم الذي تلقيتنه في هذا المعهد، وتفزعن مع هذا العلم الى السلاح الذى زودتكن به

مربياتكن الفضليات ، فهو وحده سيدفع عنكن مكاره الحياة ، واذكرن ابدا فضل هذا المعهد فان له في اعناقنا دينا لايؤدى الا بالحفاظ على رسالته وتعاليمه ، وان له لاثرا كبيرا في تقدم النهضة النسائية في هذا البلد الطيب ، اذ كان المصنع العلمي الدؤوب ، الذي قدم وما يزال يقدم في كل عام ، نخبة من فتيات الجيل هن ازاهير المجتمع النسائي الجديد ، يضفين عليه من نقاء السمعة وحميد الصيت عطرا وفخرا .

وكانت يد الله مع الذين يرعون هذا المعهد النموذجي ، من رجال الخير والمعرفة في جمعية المقاصد ، حتى كانت المقاصد الاسلامية ، عالما علميا وانسانيا ، له مكانته السامية في قلب لبنان ودنيا العرب .

وما مرحلة التعليم التي اجتازتها الطالبات المنتهيات من حلقة الدراسة الا اول الطريق ، فمن أغلقت منكن يافتياتي العزيزات كتابها بعد المدرسة ، واكتفت بما تعلمت فيها ، ثم تصدت للسعي والظهور من غير زاد فكري وثقافي ، كانت كالمجاهدة بدون سلاح

وكأني بالسنين قد غبرت بكن قدما ، فاذا انتن امهات وسيدات بيوت ، وكواكب مجتمع ، واذ بواحدة منكن او اكثر تشهد مثل هذا الحفل الجميل ، فتعيد الذكرى الى نفسها حياتها الماضية يوم كانت تلميذة او معلمة ، مثلما اعيد الساعة هذه الذكرى بهزة وحنين فليت شعري وقد وفيت الطالبات حق الذكريات ، ففيم يهتاج الخاطر من اجل الرائدات المجاهدات .

لقد شقت المرأة اللبنانية طريقها الى الحياة العزيزة النافعة بعلم وبصيرة ، حتى شعت عبقريتها على آفاق النهضة النسائية العالمية فكما كان الفينيقيون في قديم الزمان، يشقون عباب الماء الى العالم البعيد حتى ملأوا الدنيا القديمة بآثارهم ونبوغهم ، كذلك حاضرهم المرموق، والمرأة المثقفة فيه برهان وعنوان،فهي تحت كل كوكب وفي كل افق من آفاق الشرق والغرب ، متحررة العقل والروح ، ويكاد شعاعها يلمع مع كل شارق .

واذا عدنا الى سجل النهضة النسوية العربية وجدنا المرأة اللبنانية كانت اول من صرخت في وجوه الحكام البائدين ، منذ الحرب العالمية الاولى : اعطونا الحرية ....

ومن بين الدور والقصور ، برزت القافلة النسائية البيروتية ، التي دعت الى الحق والنور بايمان واحسان ، ثم بقيت تكافح وتنافح وتسعى في الملمات القومية والوطنية، وفي زحمات الحوادث (١) إلى مشاركة الرجال فيما تستطيع عليه من اعباء وتبعات ، حتى كان الامس القريب فكانت اللبنانية اول امرأة عربية طالبت بحقوقها

« ١» من الجدير بالذكر في هذا الصدد أن أنوه بفضل طائفة من رجال الأمة الاحرار الذين دعو الى تعليم المرأة ورفع شأنها ، وفي طليعتهم أناس فقدم لبنان لكنهم خالدون بالذكر والأثر ، منهم محمد مختار بيهم، ومحمد الفاخوري ، وأنيس الشيخ وسليم علي سلام والد الأفذاذ وفيهم كريمته الأديبة عنبرة سلام .

ومن الأنصار الذين يدأبون لخير المرأة وكرامتها الصحافي الكبير محمد الباقر والعلامة محمد جميل بيهم ، والاستاذ جورج باز ، والنصوليان العبقريان محي الدين وأنيس .

الاجتماعية والسياسية ، وناقشتها في ذلك حكومتها ، وكان اخذ وكان رد ، والحقوق تؤخذ ولا توهب ، فهي تسعى الى رفع مستواها الاجتماعي والفكري حتى يتحقق لها ماتستطيع عليه ويليق بها في الحياة العامة ، وقد اثبتت بوعيها وثقافتها تقدما واسعا في مجال نهضتها ، وهي في كل يوم حانية على الانسانية المعذبة تخفف عنها آلامها وهمومها ، وفي محنة فلسطين كانت لبوءة مزمجرة تحتج وتجاهد في سبيل الارض المقدسة التي عدا عليها الغدر والطغيان وشرد اهلها ظلما وهم الوف ، وفي مضمار العلم والثقافة كانت اللبنانية مجلية متفوقة ، فمنها المعلمة والمحامية ، والطبيبة والاديبة ، وهل ننسى أن اول صحافية في شرقنا العربي ، هي من هذا الأفق الطلق الجميل

غير اني لاانساق في زهو واعتزاز لاجدوى عنده ، فان المرأة اللبنانية لم تقنع بما ادركت من مجد وتقدم ، اذ لايزال امامها اشواط خلف اشواط ، واشواك بعد اشواك ، وكلما عظم المطلوب قلّ المساعد كما قال شاعرنا المتنبي ، فالتبعات والتكاليف متعددة متجددة ، والدرب مديد ، فعليها اذن ان تقدر مهمتها ، وان تؤدي رسالتها على احسن وجه ، واقوم سبيل ، وان تفهم معنى « المسؤولية » في نهضتها ، فهي تمضي في زحام وغلاب ويكاد منكبها يصطك بمناكب الرجال ، وفيهم الشامتون والواقفون بالمرصاد ، ممن لايروقهم ان تتقدم المرأة وان تعمل على مكانتها وكرامتها ، فكأنهم يريدون الحياة لهم وحدهم ، وما فيها من خير ونعمة ، ليحبسونا في

البيوت ، ويحصرونا في المطابخ ، وهـذا من شأننا ولا تثريب علينا فيه ، لكن لنا الحق نحن النساء من امهات وفتيات ، وذوات بيوت ومجاهدات ، ان نطل على العـالم وان نفتح الابواب لنمضي في موكب الزمان .

لقد مضى العهد الذي كانت تفرض فيه علينـا الاقامة الجبرية ، واصبح من حقوقنا ان نتنفس كما يتنفس الرجـال ، فالهواء للجميع والشمس للجميع ، لكن علينا ان نثبت اقتدارنا على احتمال ماتأتي به عواصف الريح ولفحات الشمس ، وان ندل بالعمل الصـالح على كفايتنا ومواهبنا ، واننا جديرات بحق الحياة كجدارة الرجـال سواء بسواء ، وعند ذلك لايقف في سبيلنا احـد من المتصلبين والمتعصبين ، مهما غلا في أثرته وعناده .

وطريقنا الى هذا المجد النسوي المنشود،ان نكون خير الامهات والزوجات ، واخلص المديرات والمربيات ، للبيوت والابناء وأوفى المجاهدات للعروبة والوطن ، على ان لانهجم على هذه النهضة هجوم الجياع على القصاع، فما كل امرأة ينبغي ان تكون زعيمة او معلمة، ولا كل سيدة يجب ان تصير طبيبة او موظفة ، فكل من النساء ميسرة لما خلقت له من امومة وزعامة ، ومن تدبير للمنزل أو تمرس بالفنون ، والقضايا الاجتماعية والانسانية .

هذا ماادعو اليه سيداتنا وفتياتنا في نهضتهن الحاضرة ، حتى اذا عرفن معنى هذه النهضة ، وقدرن التبعات والتكاليف من اجلها ، لم

يسئ اليها بالرياء والتخاذل ، ولم يمسسها بالاستهتار والغرور ، لأنها من اقدس الواجبات النسوية ، فهي هيكل خالد لكرامتنا العقلية وعالمنا الروحي ، بل هي حلقة غير مفقودة ، تتصل بمجد المرأة الغابر الذي لايجدينا الزهو بكبريائه اذا لم نعتصم بحبل الله ونبرهن بخصالنا وافعالنا، على اننا أهل لذلك الميراث النسوي الخالد

فلنعش إذن في هذا الطرف من عالمنا الانساني الواسع ، متبجحات لامتبجحات ، ومخلصات لامنغصات ، ولا يتسنى لنا ذلك الا بالعلم الصحيح والخلق الكريم والايمان بالمثل العليا ، فاذا استطعنا ان نكون جديرات بما نسعى اليه ، أشرقت علينا في هذا الشرق الفواح ، شمس ترف من سماء لبنان ، منسابة الشعاع ، على أفواف الارز والصنوبر ، نفاحة بالأمل والحياة ، ساطعة كوجه الله .

ثقافتنا الفنية

في سورية اليوم نهضة فنية نسوية بفحواها ومدلولها المصطلح **ليس** عليه ، فأتحدث بآثارها ومظاهرها ، لكن الأمل كبير بأن تحظى المرأة السورية الحديثة بهذه النهضة المرجوة التي طلعت بواكيرها على ضفاف النيل وفي مشارف لبنان ، ولا بد من يوم قريب تستقر فيه الأوضاع السياسية والاجتماعية فتتكامل النهضة النسوية الشامية ويكون الفن من قواعدها ومعالمها ، ولئن تناولت الكلام على المرأة العربية عامة والسورية خاصة في ثقافتها الفنية فلا مناص لي من معالجة الموضوع في النواحي التالية :

المرأة السورية في الحياة المسرحية والتمثيلية ، وفي دنيا اللحون والفنون

إذا بدأت القول في هذه الناحية عدت إلى ماضٍ ومكان ليس ببعيد ولا سحيق ، لعله كان في أعقاب القرن التاسع عشر ، حين قامت دمشق وقعدت ، لحادث جديد في حياتها الاجتماعية شغل العالم وملأ الدنيا حتى بلغ الباب العالي ، وبلاد الشام كان يحكمها في ذلك الزمان آل عثمان ، فثار من أجله السلطان الأحمر الذي كان يشرف من قصره المنيف على البوسفور

فما الذي حدث في دمشق حتى هاجت الفيحاء وماجت ، وانتهى الخبر والأثر الى الآستانة ؟ ذلك ان أبا خليل القباني أقام مسرحا

في حمام القيشاني ، أو في منزل آخر من منازل دمشق العتيقة ، وجعل يعرض للناس قصصاً وروايات تمثيلية ، يسميها « القميضة » الكوميدي .

ماذا صنع هذا الرجل حتى عدّ القوم أمره بدعاً وعجباً ؟ إنه أخرج الفتية المرد على المسرح بصور نساء، فصنع لهم الضفائر المجدولة والثياب المتهدلة التي تجرجر ذيولها ، وحمّر خدودهم والقى عليهم صفات الانوثة في الحكاية والتمثيل ، حتى يكاد يحار النظارة فيهم ، أكانوا ينظرون الى رجال في صور نساء ، يخفقن أمامهم مهتزات الخصور ، مكحولات العيون، مزججات الحواجيب ؟ ياغيرة الله، إنه لخطب داهم ! !

فماذا صنع الشاميون بأبي خليل الذي ابتكر لهم فن التمثيل ، وما كان جزاؤه عندهم ؟ .

لعل الذكرى تؤلم حين يسطر القلم انهم ائتمروا به وتناولوه بالغضاضة والتعيير ، ظانين انهم اذا اضطهدوه ونغصوه ، فلوّا من فنه وغلبوه على أمره ، وما كان الاضطهاد الا ليزيد أبا خليل مضياً في الرسالة الفنية التي ألهمه البرناس العربي أن يؤديها الى الجيل ، مهما حاق به الويل والتنكيل ، فهجر الديار السورية ، وإذا هو بعد حين على ضفاف النيل ، والقاهرة يومذاك ملجأ الاحرار فأخذ أبو خليل يبدع للمسرح المصري لوناً جديداً ، فيه الجد والهزل ، فيه غناء ملحن يسمى عند الفرنجة بالاوبريت ، فكيف عرف

أبو خليل هذا اللون من الغناء الجديد وهو لم يذهب الى الغرب ليقتبس منه هذا الفن الطريف ؟ لعلهم حدثوه به فقلده وأجاده ، وكان في غنائه ولحونه، رقص «السماح» ، فأقبل عليه المصريون مغتبطين، وحفزوه الى الابداع حتى أقام هو والشيخ سلامة حجازي بفرقتيهما الكبيرتين مسرحاً للتمثيل الغربي ، كان في مستهل هذا العصر ، فاتحة لنهضة فنية ، رسخت قواعدها على ضفاف النيل .

من ذلك الحين قضي على المسرح في سورية ، فلما ابتليت هذه البلاد بانتداب الفرنسيين حاول بعض هواة التمثيل أن يعيدوا الحياة للمسرح، فاضطهدوا وأوذوا ، إذ مثل نفر من الشباب رواية حماسية وطنية ، كان الخطب بعدها فادحاً ، فقتل هذا الفن يوم مولده من جديد، وبقيت دمشق محرومة التمثيل طوال العهد البائد، إلا مسرحاً للغناء الشعبي والفكاهة التافهة كان هزيلاً مطلاً على بردى، يأوي اليه طائفة من الدهماء وأهل القرى كلما انحدروا من الغوطة في أماسي دمشق .

فأين المرأة السورية في نهضة التمثيل ؟ أحسب أن لا أثر لها ولا يد فيها ، ولو لا مشاهد من السينما تأتينا من صوب مصر تلوح فيها المرأة السورية بأدوار طفيفة خفيفة، لقلت إن الأرض ماتزال فاحلة ماحلة، وإن فيها لظمأ إلى بلّ المطر ، على حين تجد المصرية واللبنانية بما أتيح لهما من حرية وتمازج وتشجيع قد سبقتا إلى المسرح ، واستطاعتا في ظلاله على تنمية مواهبهما ، وتغذيتها بالمرانة والمراس ،

فظهرت من بنات النيل ولبنان ، ممثلات بارعات إذا قعدت بهن الثقافة التمثيلية عن اللحاق بحسان هوليوود ، فان منهن من حظيت بمكانة مرموقة في الحياة المسرحية

وقد كان لنهضة الأدب في مصر أثر كبير في الثقافة الفنية النسوية ، وكم لشوقي من يد على الفن في نظم المسرحيات ، وحين شهدت فاطمة رشدي ، وأمينة رزق وأمثالها قلت إنهن ممثلات موهوبات لايتعاظمهن احتلال المكانة اللائقة في التمثيل العربي ، هذا التمثيل الذي أقامت له الحكومة المصرية معهداً عالياً تتعلم فيه الفتاة إلى جنب الفتيان ، ولا يتاح فيه القبول إلا للحائزين على البكالورية والفائزين بالشروط المطلوبة معها ، أما اللبنانية فتمثلها في التمثيل السينمائي الآنسة الموهوبة الكسندرا بدران المعروفة بنور الهدى . وقد استطاعت هذه الفنية الرصينة أن تمضي الى غايتها قدُما بما أوتيت من سمعة فاضلة ومواهب أصيلة في الغناء والتمثيل .

ولست بسبيل النقد الاجتماعي ، فأعلل انصراف المرأة السورية عن فن المسرح فان هذا يطرح مطارحه بعد أن يبني الرجال هيكل هذا الفن ، وأحسب أن العرف المحتوم في التقاليد والعادات سيحول طويلا دون هذه النهضة المسرحية والتمثيلية ، وللمرأة السورية اليوم مندوحة عن هذا باستيفاء نصيبها من الثقافة والمعرفة

كذلك ضاقت الآفاق على السوريات في الغناء ، فاذا عدنا الى زمن قريب وجدنا أن بلاد الشام أطلعت موهوبات وملهمات في

الغناء والتطريب أودع الله حناجرهن أصوات العنادل ، لكن هذه الأصوات لم تستطع التغريد على سجيتها وحريتها ، فانتفضت صواحبها من قيود البيئة وتقاليد البلد ، وفزع بعضهن إلى مصر حيث اتسعت الآفاق والموارد ، وهنـالك كانت دور السينما والتمثيل ومسارح الغنـــاء والطرب ، تتلقاهن بحفاوة وتقدير على الرغم من كل تنافس وتحيز

لقد كن بذوراً حلوة خلقها الفن في أرض جدباء ، فلما أتيح لهـا أن تنقل إلى وادي النيل حيث يطيب الغرس ، أزهرت تلك البذور وأثمرت ، ولكم يشوقنا أن نسجو بالاسماع إلى قمرية الشهباء « ليلى » التي أنجبتها مدينة سيف الدولة ، وقد ترددت أغاريدها على ضفاف النيل وفي ظلال النخيل وغير «ليلى» مراد ، ماري جبران ، وزكية حمدان ، وسواهن كثيرات ظهرن في مصر مغنيات ، لهن في سوريه أصول ونمتهن فيها أعراق تحن المسامع إليهن في كل حين ، ولولا أن الاذاعات قربت منهن الأسباب ، ومشاهد السينما اطلعت بعضهن مطالع التقريب لاشتدت لهفة سورية إليهن ، وما يزال صوت الحاكي والمذياع يرجّع صوتاً خالداً على الزمان ، تمد له النفوس وتبكي العيون على شعلة عربية سطعت من جبـل الصيد المناجيد ، بني معروف ، ثم انطفأت في أرض مصر ، فريح اسمهان ، أي صوت شامي حنون تركت دويه في الوجود ! وكأن إلهام الفن تنزل من عليائه على حنجرتها ، وتردد في صداها

لقد ذهبت أسمهان قرباناً لهذا الفن الذي عاشت من أجله، وبقي صوتها يهدهد الجوانح الحرى ، ويملأ الأسماع باللهفة والحنين

وفي سورية عدد من الشادبات الناشئات والمتمرسات المحترفات لو يتاح لهن توجيه فني لبرزت الموهوبات لأول الصفوف ، أما في لبنان فمجالهن أقرب وأرحب ، وقد أتيحت لبعضهن شهرة بعيدة كسهام رفقي ذات الطابع الخاص ، ونجاح سلام التي أخذت الفن عن أبيها الموسيقار المجدد محي الدين سلام ، « وصباح » الفغالية ، و « نور الهدى » وكلتاهما يفوح شباب لبنان في غنائها وأدائها

هذه إلمامة خاطفة عن طائفة من المغنيات الفنيات، عرفهن القوم وكم دون الحجاب وفي ظلال البيوت، أصوات مكبوتة لم يقيض لها أن تشقشق وأن تملأ الأرواح من تغريدها ، ولقد أسمعت منذ سنين صوت فتـــاة ما أحسب عرش أم كلثوم يبقى قائماً لو تمرست هذه الفتاة بالغناء والتطريب ، غير أنها تزوجت واستسرت في قيود البيئة فكبت الفن في نفسها، ورب شعور يهتاج فيها، فتغمغم أغنية حبيسة لعل فيها العزاء والسلوى عن أمل ضائع وفن شتيت ، وقد تكون اليوم في بيتها بين الولد والمطبخ ..

وفي الموسيقى لم تعرف السوريات مبدعة او بارعة مارست هذا الفن الجميـل او وقفت جهدها عليه ، غير الآنسة ابلين عجمي شقيقة الآنسة ماري عجمي ، وكانت سورية في زمانها البعيد لا تخلو من موسيقيات ، صناجات وطنبوريات ، وعوادات وربابيات ، لكن

هذا الفن انحط على تراخي الأيام ، وبقيت السوريات ذوات شغف بالطرب ، ففي بعض مجالس السمر ومواعيد « الاستقبال » نسمع عوادات مجيدات ، ينمنمن بالأنامل على الأوتار ، غير أنهن متكتمات يؤثرن التطريب والعزف على بعض الآلات في خلواتهن ، او في مجالس صواحبهن .

ان التعليم النسائي في سورية لايعني بالموسيقى والتلحين ، عناية المصريين بهذا الفن الأصيل ، وان لها في بلاد النيل ندوات ومعاهد، أجزلت لها التشجيع واختصتها بالعناية ، وأدخلت الحكومة تدريس الأناشيد وآلات الايقاع في مدارس البنات ، وأنشأت لها معهداً ثانوياً وعاليـــاً لمعلمات الموسيقى والاختصاص بما تنبغ فيه الفتاة ، وتتعهد الفن في هذا المعهد عميدته الفضلى إحسان كيلاني وفريق من الموسيقيات المثقفات منهن بثينة فريد وعائشة صبري وليلى فرح ، وغيرهن كثيرات يتفوقن بالمسابقات العامة

وقد كان لهذا النوع من الثقافة الفنية أثر محمود في توجيه الفتاة المصرية الحديثة ، ولا غرو فان هـذه الثقافة من مقومات التعليم النسائي، ومتممات حاجته المعاصرة ، ومن العجب ان يقتحم التطور أكثر نواحي الحياة في سورية دون هـذا التعليم الذي بقي معظمه صورة عن تعليم البنين ، فأين الرياضة الحـــديثة للبنات على أنغام الموسيقي وهـدهـدة الايقاع ، وأين الأناشيد المدرسية للفتيات التي تحيي فيهن الأمل من أجل حياة أبقى وأنقى، وأين دروس الموسيقى

التي ضلت فيها الفتاة السورية السبيل ، فلا غناء ولا تمثيل ، ولا أداء ولا إلقاء من أجل الفن ، ففتاتنا تخرج من معهدها مزودة بالاجازة والشهادة للوظيفة أو الظهور احياناً وقد اضاعت كثيراً من أنوثتها ثم تنسى بعد حين تلك الدروس الحشوية النظرية ، فاذا شبت ودخلت الحياة الاجتماعية والزوجية لم تجد بين يديها إلا القليل

وما تزال الثقافة الفنية في الرسم والتصوير دونما هي عند الرجل ، فالمرأة فيه زاهدة مقيدة ، وعنه منصرفة متلهية ، ولم تعرف عندنا مصورة نابغة لفتت الأنظار الى متحفها وروائع فنها ، وتدريس الرسم في مدارس البنات يجري تقليدياً راتباً ليس فيه تطور ولا تجديد ، لأن أولي الأمر يحسبون أن الثقافة التصويرية من «الكماليات» للمرأة ، وقد فاتهم أنها والموسيقى ضرورة مقضية ، فهما قوام الثقافة الفنية النسائية ، على حين تجد مصر الحديثة معنية كل العناية بتعهد هذه الثقافة في التعليم المعاصر ، وقد شهدت بمصر ، إبان مقامي بها معارض فنية أقامتها مصورات مصريات أوتين مواهب الرسم ، وتلقين الاختصاص بهذا الفن في ديار الغرب ثم عدن الى الوطن ومعاهده مزودات خير زاد من ثقافة الفكر والفن ، فملأن الفراغ في نواح من النهضة النسوية والحياة الاجتماعية ، وإن منهن من باعت صوراً وألواحاً بأغلى ثمن ، وهذه الصور والألواح التي أجادها فن المصريات تزين اليوم قصور الكبراء والأمراء ودور المفكرين والمثقفين ، ممن يقدرون الفنون الجميلة ، وهنا أذكر بأن في وادي النيل من بناته

الفنيّات مصورات موهوبات ، هن الحجج البالغة التي تنقض رأي المناوئين للمرأة ، الذين يزعمون بأن المرأة لاتبدع في الفن ولم تؤت مواهبه ومزاياه ، فمن هؤلاء العبقريات زينب عبده وإنعام سعيد وعزيزة يوسف وعدالت كمال وأليس تادرس و كوكب يوسف فقد جمعن بين الفن الأصيل والفكر المتحرر والمثالية الروحية و الوطنية

أما في لبنان فعلى الرغم من قلة المعاهد المختصة بهذه الثقافة فقد أبت المواهب إلا أن تظهر في نفر من النساء كن موسيقيات ملهمات ، ومصورات فنيات ، منهن الأديبة السيدة سلوى محصاني مومنة التي جمعت بين الأدب والفن .

على أننا لو تأملنا عناية السوريات بهذه التحاسين والتزاويق التي ينثرنها في بيوتهن زينة وفرشاً ، ويصنعنها بأيديهن كساء ولبوسا ، لادركنا فيهن وعياً لكل فن وثقافة ، ولكن يعوزهن التوجيه والتشجيع ، فالمواهب إذن دفينة مستكنة ، تحتاج الى بعثها ورعايتها ، وأذكر أني شهدت في دمشق بيتاً أشبه بمعرض فني منوع ملأته سيدته الحلبية أثاثاً وزخرفاً ، مصنوعاً من الخشب والنحاس ، وبعضه من الزجاج والورق ، فيه الخزائن والمناضد ، وفيه الثريات والمشاجب ، وكثير من الصور الملونة التي كانت من صنع السيدة ، فليت فتياتنا السوريات يقبلن على هاته الصناعات الفنية التي تفتح لهن آفاقاً جديدة ، وتكون لبعضهن حرفة يتكسبن بها او الهية

شريفة تصرفهن عن كل لهو فاسد ، وفراغ مملول ، فيملأن البيوت والمعارض بما صنعت أيديهن وأبدعت مواهبهن

وإذا كانت هـذه الفنون وأكثرها ملتصق بطبيعة المرأة ، ممـا يثقف الفكر ويصقل الذوق ويهون الخطوب، فما احرانا بأن نسعى الى توجيهها وجهة صحيحة صريحـة ، ولن تتحقق ثقافتنا الفنية كما تحققت عنـد غيرنا ممن سبقنا اليها، الا إذا تعهدتها الحكومة ، فرعت مغارسها وجددت معالمها ، فحببتها الى فتيات اليوم وقربتها منهن ، فهي أجدر ماينبغي أن يعنى به في التعليم النسائي ، ولعـل المرأة السورية الحديثة كلما أحاطت بألوان الثقافة ارتقت في آفاقها هذه الفنون ، فتكون من دعائم نهضتها التي يعوزها التطور والتجـدد ، وإن شيوع المعرفة بين النساء وتبدل الآفاق وتمازج الثقافات كفيل بميـــلاد عهد جديد للمرأة السورية تبرز فيه موفورة الفن والطموح ، مستتمة لوعيها ورقيها ، فتكون لها نهضة فنية مرموقة .

الخطأ	الصواب	ص	س
لهم	لهن	٢٠	٤
يرى	يروي	٢٣	١٢
ذكر	ذكرها	٣١	١
فأحدهما	فأحداهما	٣٧	٦
ومضت	ومضى	٤٠	٥
فهن	فهي	٤١	٦
أيامي	أيامى	٤٣	٩
الحجام	الحجاز	٤٤	٣
حذيمة	جذيمة	٤٨	١٠
التعدي	التصدي	٥٨	٤
جواها	جوها	٦٢	١٠
ويزود	ويذود	٨٠	٣

طبع هذا الكتاب بعناية الاستاذ عبد العزيز الموصلي صاحب مطبعة «الثبات» الذي يرعى آثار المؤلفين والمثقفين باخلاص واهتمام

في هذا الكتاب :

الصفحة	
١	المدخل
١	إنصاف المرأة
١٠	السوريات في النضال الوطني
١٧	مجالس الأدب عند نساء العرب
٣٠	بطولة المرأة العربية
٣٧	هل المرأة وفية ؟
٤٥	كيف نتحدث
٥٤	حاجات ملبيات
٦١	أدب النسوة
٦٨	سحر المرأة
٧٣	قفل بغير مفتاح
٧٩	إحياء البنات
٨٦	اللآلىء الالهية
٩٢	المرأة والتعليم العالي
١٠٢	الثقافة النسوية المنشودة
١١٠	فتش عن الرجل
١١٥	أعداء المرأة
١٢٣	محمد محرر النساء
١٣٢	نهضة المرأة السورية
١٣٣	التقدم المرموق
١٤٩	ثقافتنا الفنية

396:Sa15iA:v.1:c.1
سكاكيني ،وداد
انصاف المرأة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01023774

American University of Beirut

396
Sa15iA
v.1

General Library